تفسير

سورة الروم[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

١. ﴿الٓمٓ﴾ ذكرنا تفسيره في سورة العنكبوت .

٢-٣. قوله تعالى : ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال المفسرون : «إن أهل فارس غلبوا أهل الروم ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ففرح بذلك كفار مكة ، وقالوا : إن فارس ليست لهم كتب ونحن مثلهم ، وقد غلبوا أهلَ الروم وهم أهل كتاب مثلكم ، فنحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم»[٢] .

---

(١) مكية كلها ، وعدد آياتها ستون آية . انظر : غريب القرآن لابن قتيبة ٣٤٠ ، وتفسير الثعلبي ٨/ ١٦٣ ب . وحكى الإجماع على ذلك . انظر أيضاً : زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٢٨٦ ، وتفسير الثعلبي ٨/ ١٦٤ أ .

(٢) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠١ عن مجاهد وقتادة والشعبي ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ١٧ عن ابن عباس وعكرمة وعطاء والشعبي ، وأخرجه مقاتل عن عكرمة في تفسيره ٧٥ ب ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٤ أ ، وصدَّره بقوله : «قال المفسرون» ، ولم يسمِّهم .

وقال السُّدِّي : «اقتتلت فارس والروم فغلبتهم فارس ، ففخر أبو سفيان بن حرب على المسلمين ، وقال : الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم الكتاب . فذلك قوله : ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾[١] ، وهم جيل من ولد الروم بن عيص بن إسحاق[٢] ، غلب اسم أبيهم عليهم ، فصار كالاسم للقبيلة . وإن شئت قلت : جمع رومي منسوب إلى روم بن عيص ، كما يقال : زِنجي وزنج ، ونحو ذلك» .

قال صاحب النظم : «لا يحتمل قوله : ﴿الٓمٓ﴾ هاهنا إلَّا أن يكون في معنى القسم ، ويكون خبره في قوله : ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ على معنى : لقد غلبت ، فلمَّا أضمرت قد أضمرت معها اللام ، وقد مما يضمر ، كقوله : ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء :٩٠] ، وقول النابغة :

أَضْحَتْ خَلاءً وأضحى أهلُها احتمَلُوا[٣]

يعني : قد احتملوا .

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٦ عن ابن عباس من طرق ، وعن عكرمة وقتادة ، ولم أجد فيه رواية السُّدِّي ، ولم أجده في تفسير السُّدِّي . انظر : جمع محمد عطا يوسف .

(٢) قال ابن دريد : «الروم : جيل معروف» . انظر : جمهرة اللغة ٢/ ٨٠٣ . وفي اللسان (روم) ١٢/ ٢٥٨ : جيل معروف ، واحدهم رُومي ، ينتمون إلى عِيصو بن إسحاق النبي عليه السلام .

(٣) ديوان النابغة الذبياني ٣١ ، وعجزه :

أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

وفي الحاشية : أخنى عليها : غيَّرها وأفسدها ، ولبد : زعموا أنه نسر كان للقمان بن عاد عُمِّر طويلاً . قال البغدادي : «هذا البيت من قصيدة للنابغة الذبياني مدح بها النعمان بن المنذر ، واعتذر إليه مما بلغه عنه» . انظر : خزانة الأدب ٤/ ٥ .

ولـمَّـــا أضمر قد في الآيـــة وهو موضع اللام أيضـــاً ، كقوله : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمـران :١٠٦] فيقـــال لهـــم : ﴿أَكَفَرْتُم﴾ أضمر الفاء معه ؛ لأنه موضعه ؛ وذلك أن جواب (أمَّا) لا يكون إلَّا بالفاء ، كما قال عز وجل : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران :١٠٧]» .

وقوله : ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ . قال ابن عباس : «يريد الجزيرة»[١] .

قال ابن أبي نجيح : «هـــي الجزيرة ، وهي أقرب أرض الروم إلى فارس»[٢] . وعن ابن عباس أيضاً : «طَرف الشام»[٣] .

وقال مقاتل : «هي الأردن وفلسطين» ، عكرمة : «أذرعات وكَسْكَر»[٤] .

---

(١) لعل المراد بها جزيرة أَقُور ؛ فإنها تســمى الجزيرة ؛ لأنها بين دجلة والفرات ، مجاورة الشام ، وقد أطال الحديث عنها ياقوت في معجمه ٢/ ١٥٦ ، وهي تقع شـمال غرب العـراق ، في المنطقة الفاصلة بين العراق وسوريا .

(٢) ذكره عنه الثعلبي ٨/ ١٦٥ أ .

(٣) أخرجـه ابن جريـر ٢١/ ٢١ عن ابن عباس ، وأخـرج نحوه ٢١/ ١٦ عن ابـن عمر ، وذكره عن ابن عمر الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٣١٩ . قال الزَّجَّاج ٤/ ١٧٥ : «وتأويله : أدنى الأرض من أرض العرب» .

(٤) في تفسير مقاتل ٧٥ ب : أذرعات عن عكرمة ، وفي ٧٧ أ : الأردن وفلسطين ، وليس فيه ذكر كَسْكَر ، ولكـــن ذكره عن عكرمـــة الثعلبي ٨/ ١٦٥ أ ، وأخرج ابن جريـــر ٢١/ ١٨ عن عطاء وعكرمة أنها : أَذْرعات . وأَذْرعات : بلد في أطراف الشـــام ، يجاور أرض البلقاء وعَـمَّـــان . انظر : معجم البلدان ١/ ١٥٨ . وكَسْكَر فيدل تعريف ياقوت لها على أنها مدينة بين البصرة والكوفة . انظر : معجم البلدان ٤/ ٥٢٣ ، وهي تقع جنوب شرق بغداد على نهر دجلة بالقرب من الحدود الإيرانية . وفي تهذيب اللغة ٢/ ٣١٥ : أَذْرعات : بلد تنســـب إليها الخمر ، وفي اللسان (ذرع) ٨/ ٩٧ : موضع بالشام تنسب إليه الخمر ، وهي تبعد نحو ١٢٠كم إلى الشرق من مدينة عكا .

وقوله : ﴿وَهُم﴾ : يعني الروم . ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ . قال الفرَّاء : «كلام العرب : غَلَبْتُه غَلَبَةً ، فإذا أضافوا أسقطوا الهاء ، كما أسقطوها من قوله : ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الأنبياء :٧٣] والكلام : إقامة الصلاة»(١) . وأنكر الزَّجَّاج ذلك ، وقال : «هذا خطأ ، والغَلَب والغَلَبة مصدر : غَلَبْتُ ، مثل : الجَلَبُ والجَلَبَة»(٢) .

وقال المُبرِّد : «أضاف الغلبة إلى الروم وهم مفعولون ؛ لأن الفعل يضاف إلى مفعوله كما يضاف إلى فاعله ؛ لأنه صاحبه ، تقول : أعجبني خياطة الخياط ، وبناء الباني ، ونجر النجار ، ويضاف إلى المفعول ؛ لأنه فيه حَلَّ ، يقولون : ما أحسن بناءَ هذه الدار ، وخياطةَ هذا الثوب ، ونجرَ هذا الباب ، ومثل هذا في القرآن كثير ، كقوله : ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة :١٧٧] ؛ أي حُب المال . ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان :٨] ؛ أي حُب الطعام ، ومثله : ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ [ص :٢٤] ، وهذا مما ذكرنا قديماً»(٣) .

٣-٤ . قوله تعالى : ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ : ذكرنا تفسير البضع عند قوله : ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف :٤٢](٤) .

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٣١٩ .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٧ . الجَلَب : ما جلب القوم من غنم أو سبي ، والجَلَب : الجلبة في جماعة الناس ، والفعل : أجلبوا وجَلَّبوا من الصياح . انظر : تهذيب اللغة (جلب) ١١/ ٩٠ .

(٣) قال الواحدي في تفسير هذه الآية : «قال الفرَّاء والزَّجَّاج : والمعنى : بسؤاله نعجتك فأضيف المصدر إلى المفعول لمَّا ألقيت الهاء من السؤال ، ومثله : ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [فصلت :٤٩] ؛ أي من دعائه بالخير ، فلمَّا ألقى الهاء أضيف الفعل إلى الخبر ، وألقي من الخبر الباء ، كقول الشاعر :

ولستُ مُسلِّماً ما دمتُ حياً ... على زيدٍ بتسليمِ الأميرِ

أي : بتسليمي على الأمير» .

(٤) ذكر الواحدي في تفسير هذه الآية الخلاف في البضع ، والأقوال التي ذكرها :

١ . البضع ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ؛ أي من واحد إلى أربعة ، قاله أبو عبيدة .

٢ . قال الأصمعي : «ما بين الثلاث إلى التسع» ، وصحَّحه الزَّجَّاج .

٣ . البضع ما بين العقدين ، وهو قول الأخفش . ثم قال الواحدي : «وعامة المفسرين على أن المراد بالبضع هاهنا : سبع» .

أخبر الله تعالى أن الروم بعدما غُلبوا سيغلبون ، ويصيرون غالبين لفارس . روى عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس قال : لمَّا نزلت : ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ ناحب أبو بكر قريشاً ثم أتى النبي ﷺ وقال : إني ناحبتهم ، فقال له النبي ﷺ : «فهلَّا احتطت فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع»[١] . والمناحبة : المراهنة ، وذلك قبل تحريمه[٢] .

وقال في رواية عطاء : «لمَّا نزلت هذه الآية جرى بين أبي بكر -رضي الله عنه- وأمية بن خلف في ذلك كلام حين وقع بينهما رهان على ثلاث قلائص[٣] إلى أجل ثلاث سنين ، فأتى أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : «ارجع فاستزده في القلائص ، وفي السنين» ، فصيروا الرهان سبع قلائص إلى سبع سنين»[٤] .

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٧ من طريق ابن شهاب الزهري عن عبيدالله ، عن عبدالله بن عباس . ومن الطريق نفسه أخرجه الترمذي ٥/ ٣٢٠ ، كتاب : التفسير ، رقم ٣١٩١ . وقال الترمذي : «هذا حديث غريب من حديث الزهري عن عبيدالله عن ابن عباس» . وهو حديث مرسل ؛ فعبيدالله بن عبدالله قد أرسل عن جماعة من الصحابة ، منهم : ابن عباس . انظر : تهذيب التهذيب ٧/ ٢٢ . والحديث في ضعيف سنن الترمذي ٤٠٢ ، رقم ٦٢٤ .
وقد ورد في النسختين هكذا : عبدالله بن عبدالله ، والصواب : عبيدالله بن عبدالله ، كما هي رواية الترمذي ، وابن جرير .

(٢) تفسير الثعلبي ٨/ ١٦٤ ب . والنَّحب : تطلق على معانٍ ، منها : النذر ، والقمار ، وغيرهما . انظر : تهذيب اللغة (نحب) ٥/ ١١٧ .

(٣) القَلُوص : الفتية من النوق ، بمنزلة الفتاة من النساء ، وتطلق أيضاً على كل أنثى من الإبل حين تركب ، وإن كانت بنت لبون أو حِقة . انظر : تهذيب اللغة (قلص) ٨/ ٣٦٨ .

(٤) أخرج نحوه ابن جرير ٢١/ ١٦ عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير ، وأخرجه أيضاً عن عكرمة وقتادة ، مع اختلاف في عدد السنين ، وعدد القلائص ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٤ ب ولم ينسبه .

وقال الشعبي : «بلغنا أن المسلمين والمشركين تخاطروا[١] بينهم لـمَّـا نزلت هذه ، وذلك قبل تحريم القمار ، وضربوا بينهم أجلاً ، فقال النبي ﷺ : «لو ضربتم أجلاً آخر فإن البضع يكون ما بين الثلاث إلى تسـع» فزايده إلى سـبع سنين على سـبعة أبكار ، قال : فالتقى الروم وفارس ، فغلبهم الروم ، فجاء جبريل بهزيمة فارس وظهور الروم عليهم ، ووافق ذلك يوم بدر»[٢] .

وقال سـعيد بن جبير عن ابن عباس : «لـمَّـا غلبت فـارس الروم وفرح المشركون بذلك ، ذكروا ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسـول الله ﷺ ، فقال رسـول الله ﷺ : «أما إنهم سـيغلبون فـارس» ، فذكر أبو بكر لهـم : إن الروم سيغلبون ثم عقدوا عقد الرهان على ما ذكرنا»[٣] .

قال أبو إسحاق : «وهذه من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله عز وجل ؛ لأنه أنبأ بما سيكون وهذا لا يعلمه إلَّا الله»[٤] .

---

(١) الخَطَر والسَّـبَق والنَّدَب واحد ، وهـو كله : الذي يوضع في النِّضال ، والرهان ، فمَن سـبق أخذه . انظر : تهذيب اللغة (خطر) ٧/ ٢٢٤ .

(٢) أخرجه عنه ابن جرير ٢١/ ١٩ مختصراً .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٦ من طريق سـعيد بن جبير ، وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٤٥ ، كتاب : التفسير ، رقم ٣٥٤٠ من طريق سـعيد أيضاً ، وقال : «على شرط الشـيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي» ، وأخرجه من طريق سـعيد أيضاً الترمذي ٥/ ٣٢٠ ، كتاب : التفسير ، رقم ٣١٩٣ ، وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح غريب» ، وهو في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٨٧ ، رقم ٢٥٥١ .

(٤) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٥ .

وقال جماعة من المفسرين : «صاحب القمار من جهة المشركين كان أُبي بن خلف ، وكان الخَطَر بينهم : مائة من الإبل»[١] .

وقوله : ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ : أجمع المفسرون «أن الروم غلبت فارس بعد ما أخبر الله بهذه الآية أنهم سيغلبون في السنة السابعة»[٢] .

قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ حين غلبت الروم فارس ، وهذا قول الجميع ، قالوا : ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ أن تغلب ﴿وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ما غلبت[٣] . والمعنى : أن غلبة أحدهما الآخر ، أيهما كان الغالب والمغلوب فإن ذلك بأمر الله وإرادته وقضائه وقدره ، فحين غلبت فارس الروم كان الأمر لله ، وحين تغلب الروم فارس يكون الأمر لله .

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٩ عن عكرمة وقتادة ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٤ ب ولم ينسبه .

(٢) تفسير مقاتل ٧٧ أ ، وليس فيه ذكر السنة ، بل ذكر فيه أن ذلك وقع في سنة الحديبية ، وقد وقع صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة . انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣٢١ ، والفصول في سيرة الرسول ﷺ ١٨٤ . وذكر نيار بن مُكرَّم أنها سبع سنين ، أخرجه عنه الترمذي ٥/ ٣٢١ بسند حسن ، قاله الألباني . انظر : صحيح سنن الترمذي ٣/ ٨٨ . وذكره السيوطي عن ابن شهاب وقتادة في الدر المنثور ٦/ ٤٨١ ، وأخرج ابن جرير ٢١/ ٢٠ عن ابن مسعود أنها تسع . فحكاية الإجماع هنا غريبة ؛ إذ اختلفت أقوال المفسرين في زمن وقوع ظهور الروم على فارس ، فقيل : يوم بدر ، وقيل : في صلح الحديبية ، وقيل : بعد سبع سنين من الأجل ، وقيل : بعد تسع سنين ، وقال الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٤ ب : «لمَّا ذكر القول بأن المدة سبع سنين ، قال بعده : هكذا قول أكثر المفسرين» . فحكاية الإجماع هنا غير مستقيمة ، والله أعلم .

(٣) أخرج نحوه ابن جرير ٢١/ ٢١ عن ابن جريج ، وانظر : تفسير مقاتل ٧٧ أ ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٦ .

وذكرنا الكلام في وجه ارتفاع ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾ في أوائل سورة البقرة[١] . وذكر الفرَّاء والزَّجَّاج هاهنا كلاماً طويلاً في إعراب ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾ ووجوه استعمالهما مركبة[٢] .

٤-٥ . قوله : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ . قال ابن عباس : «يريد : حينئذٍ ؛ حين تغلب الروم فارس ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ : أبو بكر وأصحابه ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ الروم على فارس»[٣] ، وقال مقاتل : «لمَّا كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة ، وأتى الخبر المسلمين أن الروم قد غلبوا أهل فارس ففرح المؤمنون بذلك» .

قوله : ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ : يعني يوم بدر[٤] . ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ ، ونحو هذا قال السُّدِّي : «فرح النبي ﷺ والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم : بدر ، وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك» . قال أبو سعيد الخدري : «ظهر الروم على فارس يوم أُحد»[٥] .

---

(١) قال الواحدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة :٢٥] : «﴿قَبْلُ﴾ بنى على الضم في هذا الموضع ؛ لأنها تضمنت معنيين ؛ أحدهما معناها في ذاتها وهو السبق ، والآخر معنى ما بعدها ؛ لأن التأويل : هذا الذي رزقنا من قبله ، فهو وإن لم يضف ففيه معنى الإضافة ، فلمَّا أدت عن معنيين قويت فحملت أثقل الحركات ، وكذلك قوله : ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ تأويله من قبل كل شيء وبعده» ، وهذا مذهب الفرَّاء والمُبرِّد ، واختيار ابن الأنباري . وقد ذكر إعرابها سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٨٦ ، والمُبرِّد في المقتضب ٣/ ١٧٤ ، ١٧٥ ، والأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٨ .

(٢) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣١٩-٣٢٢ ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٦-١٧٧ .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٧ .

(٤) تفسير مقاتل ٧٧ أ . ولا يفهم من نقل الواحدي عن مقاتل أن غلبة الروم على فارس كانت مقاربة لغزوة بدر ، بل قال مقاتل : «وأتى المسلمين الخبرُ بعد ذلك ، والنبي ﷺ والمؤمنون بالحديبية ، أن الروم قد غلبوا أهل فارس» .

(٥) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢١ ، وفيه يوم بدر ، وهكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٨١ ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، وأخرجه كذلك الترمذي ٥/ ٣٢٠ ، كتاب : تفسير القرآن ، رقم ٣١٩٢ . فكتابة أُحد بدل بدر في البسيط تحريف ، والله أعلم .

وقال آخرون : «ظهر الروم على فارس يوم الحديبية» ، وهو قول عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود[١] .

وقولـه : ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ . قال ابن عباس : «يريد : الرومَ على فارس» ، وقال مجاهد : «بإدالة الروم من أهل الكتاب على فارس أهل الأوثان»[٢] .

قوله : ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ ؛ أي كما نصر الرومَ على فارس .

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ : المنيع في ملكه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين خاصة[٣] .

٦ . ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

قوله : ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ . قال أبو إسحاق : «مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ هو وعد من الله للمؤمنين ، فقوله : ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بمنزلة : وعد الله وعداً»[٤] .

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٩ عن عطاء وقتادة . قال ابن كثير ٦/ ٣٠٣ : «وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء ؛ كابن عباس ، والثوري ، والسُّدِّي ، وغيرهم . . .» ، وقال آخرون : «بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية» ، قاله عكرمة ، والزهري ، وقتادة وغيرهم . . . . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيلياء -وهو بيت المقدس- شكراً لله عز وجل . . . . ولم يفِ بنذره إلَّا بعد الحديبية ، ثم قال : «والأمر في هذا سهل قريب» .

(٢) أخرجه ابن جرير ٢١/ ١٧ عن مجاهد من طريق ابن أبي نجيح .

(٣) تفسير مقاتل ٧٧ أ .

(٤) ورد في معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٧ ، وذكره سيبويه في الكتاب ١/ ٣٨١ ، وذكره أيضاً المُبرِّد في المقتضب ٣/ ٢٣٢ ، فقال : «ومثل ذلك : ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لأنه لمَّا قال : ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ عُلم أن ذلك وعد منه ، فصار بمنزلة : وعدهم وعداً ، ثم أضافه» ، وذكر نحوه في المسائل الحلبيات ٣٠٣ .

قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . قال مقاتل : «يعني كفار مكة[١] ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله لا يخلف وعده في إظهار الروم على فارس» ، ثم قال لكفار مكة :

٧. ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ . قال عكرمة وإبراهيم : «معايشهم وما يصلحهم»[٢] .

وقال الحسن : «يعلمون متى زرعهم ومتى حصادهم»[٣] ، وروي عنه في هذه الآية ، قال : «بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بيده فيخبرك بوزنه ، ولا يحسن يصلي»[٤] .

وقال قتادة : «يعلمون تجارتها وحرفتها وبيعها»[٥] .

قال ابن عباس : «يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال»[٦] .

---

(١) تفسير مقاتل ٧٧ أ .

(٢) أخرجه عنهما ابن جرير ٢١/ ٢٣ .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٣ .

(٤) ذكره الدر المنثور ٦/ ٤٨٤ ، ونسبه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨٨ ، ولفظه في الدر : «يقلب الدرهم على ظفره» ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٨٩ ، ولفظه : «ينقر الدرهم بظفره» ، وفي النسختين : «ينقر الدرهم بيده» . ولعل الصواب والله أعلم : (يقلب الدرهم بيده) ؛ لأن تقليب الدرهم باليد يستفيد منه الحاذق معرفة الوزن دون النقر ؛ الذي يمكن أن يستفاد منه معرفة النوع الرديء من الجيد» .

(٥) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٢ ، وابن جرير ٢١/ ٢٣ عن قتادة .

(٦) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٢ من طريق علي بن أبي طلحة .

وقال الضحاك : «يعلمون بنيان قصورها ، وتشقيق أنهارها ، وغرس أشجارها»[١] .

وقال مقاتل : «يعني حرفتهم ، ومتى يُدرك زرعهم ، وما يصلحهم في معايشهم»[٢] .

وقال أبو إسحاق : «المعنى : يعلمون من معايش الحياة ؛ لأنهم كانوا يعالجون التجارات[٣] ، فأعلم الله -عز وجل- مقدار ما يعلمون» . وقوله[٤] : ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٥] . قال مقاتل : «ثم وعظهم ليعتبروا» ، فقال :

٨. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾[٦] ؛ أي ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ المكذبون بالبعث والقيامة في خلقي إياهم فيعلموا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية[٧] . قال أبو إسحاق : «وحذف فيعلموا ؛ لأن في الكلام دليلاً عليه»[٨] .

---

(١) ذكره الدر المنثور ٦/ ٤٨٥ ، ونسبه إلى ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨٨ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٧ أ .

(٣) ذكر نحوه الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٣٢٢ .

(٤) هكذا : (وقوله) في النسختين . ولعل الصواب : (بقوله) ، كما يدل عليه السياق ، والله أعلم . أمَّا عند الزَّجَّاج فقد جاءت بزيادة أوضحت المعنى ، قال في معاني القرآن ٤/ ١٧٨ : « . . . فأعلم الله -عز وجل- لمَّا نفى أنهم لا يعلمون ما الذي يجهلون ، ومقدار ما يعلمون فقال : ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾» .

(٥) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٨ .

(٦) تفسير مقاتل ٧٧ أ .

(٧) تفسير ابن جرير ٢١/ ٢٤ باختصار .

(٨) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٨ .

وقوله : ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ . قال الفرَّاء : «﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني للثواب والعقاب»[١] .

وقال الزَّجَّاج : «إلَّا للحق ؛ أي لإقامة الحق»[٢] ، وهو معنى قول مقاتل : «لم يخلقهما عبثاً لغير شيء ؛ خلقهما لأمر هو كائن»[٣] .

قوله تعالى : ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ . قال : «للسماوات والأرض أجل ينتهيان إليه ؛ وهو يوم القيامة»[٤] . قال الزَّجَّاج : «وهو الوقت الذي توفَّى فيه كل نفس ما كسبت»[٥] ، والمعنى : أو لم يتفكروا في خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئاً فيعلموا أن خلق السماوات لأمرٍ ، وأن لهما أجلاً ، وهو القيامة .

ثم قال : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ . قال مقاتل والكلبي : «يعني كفار مكة»[٦] . ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ . قال ابن عباس والمفسرون : «بالبعث بعد الموت ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ لا يؤمنون أنه كائن»[٧] .

قال أبو إسحاق : «معناه : لكافرون بلقاء ربهم ، تقدمت الباء ؛ لأنها متصلة بـ(كافرون) ، وما اتصل بخبر إنَّ جاز أن يقدَّم قبل اللام ، ولا يجوز أن تدخل اللام بعد مضي الخبر ، كقولك : زيد كافر لبالله ؛ لأنها تدخل على الابتداء والخبر فتؤكد الجملة ، ولا تأتي توكيداً وقد مضت الجملة»[٨] .

---

(١) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٢ .
(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٨ .
(٣) تفسير مقاتل ٧٧ أ .
(٤) تفسير مقاتل ٧٧ أ بنصه .
(٥) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٨ ، وفيه : «توفى فيه» ، وسقطت كلمة : (فيه) من النسختين .
(٦) تفسير مقاتل ٧٧ أ ، وتنوير المقباس ٣٣٩ .
(٧) تفسير مقاتل ٧٧ أ بنصه .
(٨) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٩ .

٩. قال مقاتل : «ثم خوَّفهم ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ : يعني الأمم الخالية كان عاقبتهم العذاب في الدنيا»[١] ، والمعنى : أو لم يسافروا في الأرض فينظروا إلى مصارع الأمم قبلهم ويعلموا أنهم أهلكوا بتكذيبهم فيعتبروا ، ثم وصفهم ، فقال :

﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ؛ أي أعطاهم من القوة ما لم يعطِ هؤلاء . ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ : ذكرنا تفسير : الأثار عند قوله : ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة :٧١][٢] . قال الفرَّاء : «حرثوها»[٣] ، وهو قول مجاهد[٤] .

وقال ابن قتيبة : «قلبوها للزراعة»[٥] .

وقال ابن عباس : «يريد الأجنة[٦] والأنهار وما غرسوا من الأشجار»[٧] ، يريد أن أثارهم كان لأجل هذه الأشياء .

---

(١) تفسير مقاتل ٧٧ أ .

(٢) قال الواحدي في تفسير هذه الآية : «﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ ؛ أي تقلبها للزراعة . ومعنى الإثارة : تفريق الشيء في كل جهة ، يقال : أثرت الشيء واستثرته إذا هيجته . . . .» .

(٣) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٢ . وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٩ : «أي استخرجوها ، ومنه قولهم : أثار ما عندي ؛ أي استخرجه ، وأثار القوم ؛ أي استخرجهم» .

(٤) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٥ .

(٥) غريب القرآن ٣٤٠ .

(٦) هكذا في (أ) و(ب) : (الأجنة) ، وهي جمع جنة . قال الأزهري في تهذيب اللغة (جنن) ١٠/ ٥٠٣ : «الجنة : الحديقة ، جمع جنان» .

(٧) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٤ بلفظ : «ملكوا الأرض وعمروها» .

وقال مقاتل : «يعني : وملكوا الأرض»[١] ، وهذا معنىً وليس بتفسير ؛ وذلك أنه يثير الأرض مالكها .

وقوله : ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ يعني : الأمم ، ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ : يعني كفار مكة[٢] . واختلفوا : لِمَ كانت الأمم أكثر عمارة من أهل مكة ؟ فذهب قوم إلى أنهم كانوا أكثر عمارة ؛ لأنهم كانوا أطول عمراً ، وهذا معنى قول الكلبي ومقاتل . قال الكلبي : «وبقوا فيها أكثر مما بقي فيها قومك»[٣] .

وقال مقاتل : «يقول : وعاشوا في الأرض أكثر مما عاش فيها كفار مكة»[٤] . وإذا كانوا أطول بقاءً وأكثر عيشاً كانوا أكثر عمارة ، وقال آخرون : «لأنهم كانوا أكثر عدداً ؛ فقد روي أنه لم يبقَ نَشَزٌ[٥] من الأرض يحتمل عمارة إلَّا كان لها عامر على عهد عاد ، والأمم السالفة» . وذكر أبو إسحاق معنًى آخر ، فقال : «يعني أن الذين أهلكوا من الأمم كانوا أكثر حرثاً وعمارةً من أهل مكة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أصحاب حرث»[٦] .

قوله : ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ . قال ابن عباس : «يريد : الحلال والحرام ، والأحكام والحدود» ، وقال مقاتل : «فيعذبهم على غير ذنب»[٧] . ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والتكذيب . ودلَّ هذا الكلام على أنهم لم يؤمنوا فأهلكوا ؛ لأن الله أعلم أنه عذَّبهم غير ظالم لهم .

---

(١) لم أجده في تفسير مقاتل ، ولم أجده أيضاً عند الثعلبي .

(٢) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٢ .

(٣) تنوير المقباس ٣٣٩ .

(٤) تفسير مقاتل ٧٧ ب .

(٥) النَّشَزُ ، والنَّشْزُ ، والوَشَز : ما ارتفع من الأرض . انظر : تهذيب اللغة (نشز) ١١/ ٣٠٥ .

(٦) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٩ .

(٧) انظر : تفسير قول الله تعالى : ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ في تفسير مقاتل ٧٧ ب ، فلعل ذكر الآية سقط من النسختين ، والله أعلم .

قال صاحب النظم : «يأتي [الظلم][(١)] في الكلام لثلاثة معانٍ ؛ أحدها : وضع الشيء في غير موضعه ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان :١٣] ؛ وذلك أنه وضع الربوبية غير موضعها . والثاني : المنع والحبس ، كقوله : ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف :٣٣] . والثالث : أخذ الشيء قبل وقت أخذه ، كقول الشاعر :

وقائلةٍ ظلمتُ لكمْ سِقائي ... وهلْ يخفى على العَكِد الظليمُ[(٢)]

والظليم هاهنا : اللبن يُشرب قبل أن يُدْرِك ويَروب . والمعاني الثلاثة محتملة في هذه الآية ؛ فيكون معنى قوله : ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بوضع عذابهم في غير موضعه ؛ بأخذهم قبل وقته ، وبحبس شيء من أرزاقهم . ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بوضعها في غير موضعها من التغرير بها ، وتعريضها للهلاك بالكفر ، وترك النظر لها ، ويظلمون أنفسهم أيضاً بمنعها الخير من الإيمان» .

١٠. ثم أخبر عن عاقبتهم ، فقال : ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ . قال ابن عباس ومقاتل : «يعني أشركوا»[(٣)] .

---

(١) كلمة (الظلم) غير موجودة في النسختين ، وزدتها لاستقامة الكلام .

(٢) ذكر في تهذيب اللغة (ظلم) ١٤/ ٣٨٣ ولم ينسبه ، وكذا في مقاييس اللغة ٣/ ٤٦٩ ، ولسان العرب ١٢/ ٣٧٥ . سبق أن استشهد الواحدي بهذا البيت في تفسير سورة البقرة . والبيت غير منسوب في جمهرة الأمثال ١/ ١٣١ ، واستشهد بهذا البيت في ذكر المثل : «أهون مظلوم سِقاء مروَّب» ، وكذا في مجمع الأمثال ٢/ ٤٨٢ ، والمستقصى للزمخشري ١/ ٤٤٤ . العَكِد : أصل اللسان . انظر : تهذيب اللغة (عكد) ١/ ٣٠٠ . ومعنى البيت : أن اللسان يدرك بالشرب أن اللبن قد ظُلِم بأخذه قبل وقته .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٥ من طريق علي بن أبي طلحة . انظر : تفسير مقاتل ٧٧ ب .

وقوله : ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ : أكثر التفسير في ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أنها النار ضد الحُسنى ؛ وهي : الجنة[١] ، وهو قول الأخفش والفرَّاء والزَّجَّاج وابن قتيبة[٢] . قال الزَّجَّاج وغيره : «إساءتهم هاهنا : كفرهم ، وجزاء الكفر : النار[٣] . كما جُعل للعمل الحسنى ؛ وهو الإيمان : الثواب الحسن ؛ وهو : الجنة ، في قوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس :٢٦]» .

قال ابن قتيبة : «﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ جهنم ، والحسنى : الجنة»[٤] ، وقال غيره : «سُمِّيت جهنم ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ لأنها تسوء صاحبها ، من قولهم : ساءه يسوؤه» ، وقيل : لأنها قبيحة المنظر ، يقال ساء الشيء إذا قَبُح يسوء ، والسَّوء : المرأة القبيحة ، ومنه : السيئ والسيئة ، وقد ذُكرتا[٥] ، وقيل في تفسير ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هاهنا أنها العذاب في الدنيا ، وهو قول مقاتل[٦] .

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٥ عن ابن عباس وقتادة ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٥ ب ولم ينسبه . والحسنى وردت في قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس :٢٦] ، وقد ذكر الآية الواحدي بعد ذلك .

(٢) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٢ ، وغريب القرآن لابن قتيبة ٣٤٠ ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٩ . قال الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٦ : «﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مصدر هاهنا مثل : التقوى» ، ولم أجد فيه ما ذكر الواحدي .

(٣) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٩ .

(٤) غريب القرآن ٣٤٠ .

(٥) قال الواحدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٌ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران :١٢٠] : «يقال : ساء الشيء يسوء فهو سيء ، والأنثى سيئة ؛ أي قبُح ، ومنه قوله : ﴿سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة :٦٦] ، وسوَّأت على الرجل فعله ؛ أي قبحته عليه وعبته به ، والسُّوأى ضد الحسنى ، والسَّوءاء : المرأة القبيحة» .

(٦) تفسير مقاتل ٧٧ ب .

وفي قوله : ﴿عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ قراءتان ؛ الرفع والنصب[١] ؛ فمَن نصب جعلها خبر كان ، ونصبَها متقدمةً ، كما قال : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم :٤٧] : واسم كان على هذه القراءة يجوز أن يكون أحد شيئين ؛ أحدهما : ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ على تقدير : ثم كان عاقبة الذين أساءوا[٢] ، ويكون أن في قوله : ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ مفعولاً له ؛ أي لأن كذبوا[٣] .

وهذا معنى قول الفرَّاء والزَّجَّاج . قال الفرَّاء : «﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ لتكذيبهم ، ولأن كذبوا ، فإذا ألقيتَ اللام كان نصباً»[٤] .

وقال الزَّجَّاج : «المعنى : ثم كان عاقبة الكافرين النارَ لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم»[٥] .

الوجه الثاني في اسم كان على هذه القراءة هو : ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ التقدير : ثم كان التكذيبُ ، ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ ، ويكون : ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ على هذا مصدراً ، وفُعْلَى من أبنية المصادر ، كالرُّجعى ، والشُّورى ، والبُشرى[٦] . ومعنى

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع : ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ بالرفع ، وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿عَـٰقِبَةَ﴾ بالنصب . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٦ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٢ ، وإعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ١٩٣ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٤ .

(٢) اسم كان هنا غير واضح ؛ لأن في العبارة نقصاً ، وصوابها كما عند أبي علي في الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٢ : «التقدير : ثم كان السوأى عاقبةَ الذين أساؤوا» .

(٣) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٣ .

(٤) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٢ .

(٥) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٩ .

(٦) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٣ . والرُّجعى وردت في قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق :٨] ، والبشرى في قوله تعالى : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس :٦٤] ، و﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود :٧٢] ، و﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر :١٧] . أمَّا الشورى فلم ترد في القرآن مُعرَّفة بالألف واللام ، وإنما جاءت منكرة ، قال تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى :٣٨] ، والله أعلم .

الآية : ثم كان التكذيب آخرَ أمرهم ؛ أي ماتوا على ذلك ، كأن الله تعالى جازاهم على إساءتهم أن طبع على قلوبهم حتى ماتوا على التكذيب والشرك عقاباً لهم بذنوبهم ، وهذا الوجه ذكره أبو علي وصاحب النظم .

ومَن رفع العاقبة جاز أن يكون الخبر : ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ كما جاز فيمَن نصب العاقبة أن يكون كلُّ واحد منهما الاسم ، والتقدير : ثم كان عاقبةُ المسيء التكذيبَ بآيات الله ، يعني أنه مات على التكذيب كما ذكرنا ، أو يكون المعنى : أنه لم يظفر في شركه وكفره بشيء إلَّا بالتكذيب بآيات الله . و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ على هذا في موضع نصب بأنه مصدر . وقد يجوز أن يكون صفة لموصوف محذوف ، كأنه الخَّلَة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ ، أو الخِلال ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾[1] .

١١. قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ . قال مقاتل : «الله بدأ خلق الناس فخلقهم أولاً ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياءً كما كانوا ، ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم في الآخرة»[2] .

وقُرِئ : (تُرْجَعُونَ) بالياء والتاء[3] ؛ فمَن قرأ بالياء فلأن المتقدم ذكرُه غيبة ، وهو قوله : (يَبْدَؤُا الخَلْقَ) . والخلق هم المخلوقون في المعنى ، وجاء قوله : (ثُمَّ يُعِيدُهُ) على لفظ الخلق ، وقوله : (تُرْجَعُونَ) على المعنى ، ولم يرجع على لفظ الواحد

---

(١) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٤ بنصه . وقد ضبطت (الخُلة) بضم الخاء ، و(الخِلال) بكسرها ، ولم يبين في الحاشية المعنى ، ولعل الصواب ـ والله أعلم ـ أن المراد : الخَلَّة (بفتح الخاء) ، جمع : خِلال (بكسرها) ، والمراد بها : الخَصلة . فيكون المعنى : الخصلة السوأى ، أو الخصال السوأى ، والله أعلم . انظر : تهذيب اللغة (خلَّ) ٦/ ٥٦٩ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٧ ب .

(٣) قرأ أبو عمرو ، وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بالياء ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه : ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بالتاء ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بالتاء . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٦ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٤ ، وإعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ١٩٤ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٤ .

كما كان ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ كذلك . ووجه التاء أنه صار من الغيبة إلى الخطاب ، ونظيره : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة :٢] ، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة :٥][(١)] .

١٢. قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ . قال مقاتل : «ييأس» ، وهو قول الكلبي وقتادة[(٢)] .

وقال مجاهد : «يكتئب» ، وعنه أيضاً : «يفتضح»[(٣)] .

وقال الفرَّاء : «ينقطع كلامهم وحجتهم»[(٤)] .

وقال أبو إسحاق : «المُبْلِس : الساكت المنقطع في حجته ، اليائس من أن يهتدي إليها ، تقول : ناظرت فلاناً فأبلسَ ؛ أي انقطع وأمسك ، ويئس من أن يحتج»[(٥)] .

وذُكر تفسير الإبلاس عند قوله : ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام :٤٤][(٦)] .

---

(١) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٤ بنصه .

(٢) ورد في تفسير مقاتل ٧٧ ب ، وذكره السيوطي عن ابن عباس ، وعزاه لابن أبي حاتم ، وذكر في الدر المنثور ٦/ ٤٨٥ ، وهو قول الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٣٢٢ ، قال : «ييأسون من كل خير» ، وكذا أبو عبيدة في المجاز ٢/ ١٢٠ ، وابن جرير ٢١/ ٢٦ .

(٣) ذكرهما الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٦ أ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٨٥ ، وعزاهما لابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨٨ .

(٤) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٢ .

(٥) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٧٩ .

(٦) قال الواحدي في تفسير هذه الآية : «قال ابن عباس : آيسون من كل خير» ، وهو قول مقاتل ، وقال الفرَّاء : «المبلس : اليائس المنقطع رجاؤه ، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته أو لا يكون عنده جواب : قد أبلس . . .» ، وقال الزَّجَّاج : «المبلس : الشديد الحسرة اليائس الحزين» . فالإبلاس في اللغة يكون بمعنى اليأس من النجاة عند ورود الهلكة ، ويكون بمعنى انقطاع الحجة ، ويكون بمعنى الحيرة بما يرد على النفس من البلية ، وهذه المعاني متقاربة .

قال الكلبي : «يئس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب»[١] .

١٣ . قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ : أوثانهم التي عبدوها من دون الله ليشفعوا لهم[٢] . ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ . قال الكلبي : «تتبرأ منهم الآلهة ، ويتبرؤوا منها»[٣] .

١٤ . ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ . قال ابن عباس : «يُفرق بين أولياء الله وبين أعدائه» ، وقال مقاتل : «يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار ، فلا يجتمعون أبداً»[٤] ، وقال الحسن : «لئن كانوا اجتمعوا في الدنيا ليتفرقُن يوم القيامة ؛ هؤلاء في أعلى عليين ، وهؤلاء في أسفل السافلين»[٥] . وكان قتادة يقول : «فُرْقَةٌ والله لا اجتماع بعدها»[٦] .

وقال أبو علي : «يصيرون فرقة بعد فرقة من قوله : ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى :٧] ، وهذا إخبار عن الخلق المذكور في قوله : ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ؛ لأنه أراد المسلمين والكافرين جميعاً ، يدل على ذلك أنه أخبر بمنزلة الفريقين ، فقال :

---

(١) تنوير المقباس ٣٣٩ .
(٢) تفسير الثعلبي ٨/ ١٦٦ أ بنصه .
(٣) تنوير المقباس ٣٣٩ بنحوه .
(٤) تفسير مقاتل ٧٧ ب .
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٨٦ ، ونسبه لابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨٩ .
(٦) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٧ .

١٥. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[١].

قال الأخفش: «يقال حَبَّره الله يُحَبِّره حَبْراً، وهو محبور: مُكَرَّمٌ مُنَعَّمٌ»[٢].

قال ابن السكيت: «يُسَرُّون[٣]. والحَبْرَة والحُبُور: السُّرور»، وأنشد:

الحمدُ للهِ الذي أعطى الحَبْرَ.[٤]

وقال الليث: «يُنَعَّمُون، والحَبْرَة: النعمة، وقد حُبِرَ الرجلُ حَبْرَة فهو: مَحْبُور»، وأنشد للمرار[٥]، فقال:

قَدْ لَبِسْتُ الدهرَ مِنْ أفنانِهِ ... كلَّ فنٍّ ناعمٍ منهُ حَبِرْ[٦]

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٠، حيث قال: «وفي ما بعده دليل على أن التفرق للمسلمين والكافرين، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، ثم بيَّن على أي حال يتفرقون، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾».

(٢) لم أجد قول الأخفش في كتابه المعاني عند هذه الآية، ولا عند قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، ولم أجده في تهذيب اللغة.

(٣) ذكره عنه الأزهري في تهذيب اللغة (حبر) ٥/ ٣٤، وذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ٣٤٠، ولم ينسبه.

(٤) ورد قول ابن السكيت مع إنشاد البيت ونسبته إلى العجاج في إصلاح المنطق ٢٥٢، ونقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة (حبر) ٥/ ٣٤ مقتصراً على صدره، ولم ينسبه، وأنشده كاملاً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢٠، ونسبه إلى العجاج، وهو في ديوانه ٣٤، وعجزه:

مَوالِيَ الحقَّ إنَّ المولى شكرْ

(٥) المَرَّار العدوي، زياد بن منقذ بن عمرو، وسمَّاه ابن قتيبة: المَرَّار بن منقذ بن صدي بن مالك بن حنظلة، وأم صدي من جَل بن عدي فيقال له ولولده: بنو العدوية. والمَرَّار من شعراء الدولة الأموية، كان معاصراً للفرزدق وجرير، توفي سنة ١٠٠هـ. انظر: الشعر والشعراء ٤٦٩، وخزانة الأدب ٥/ ٢٥٣، والأعلام ٣/ ٥٥.

(٦) ذكره كتاب العين (حبر) ٣/ ٢١٨، ونقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٣٤، وفيهما نسبة البيت للمَرَّار العدوي.

وقال الـمُبرِّد : «الحبرة والحبور والحبر : التنعم والفرح ، ومنه المثل السائر : ما دار ملئت حَبْرة إلَّا وستملأُ عَبْرة»[١] .

وقال أبو عبيدة : «﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّون ويُفرَحون»[٢] . قال ابن عباس : «يريد في رياض الجنة ينعمون»[٣] ، وهو قول مجاهد وقتادة[٤] .

وقال مقاتل : «يُكرمون بالتحف ونحوه»[٥] .

وقال السُّدِّي : «يَفرحون ويُكرمون»[٦] .

وقال أبو إسحاق : «الحَبْرة في اللغة : كلُّ نِعمَةٍ حَسَنةٍ ، والتحبير : التحسين ، والحَبْر العالم ؛ لأنه متخلق بأحسن الأخلاق[٧] ، ويُحبرون : يُكرمون إكراماً يبالغ فيه» . وعن الأوزاعي ويحيى بن أبي كثير أنهما قالا هو : «السماع في الجنة»[٨] ، وعلى هذا المعنى : يُنَعَّمون بالسماع .

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ٣٤٠ بلفظ : «كل حَبرة تتبعها عَبرة» ، ولم أجده في كتب الأمثال التي اطلعت عليها .

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٢٠ .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٧ بلفظ : «يكرمون» ، وذكره عنه الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٦ أ .

(٤) أخرجه عنهما ابن جرير ٢١/ ٢٨ بلفظ : «ينعمون» ، وذكره عنهما الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٦ أ .

(٥) تفسير مقاتل ٧٧ ب ، ولفظه : «في البساتين يكرمون وينعمون فيها ، وهي : الجنة» .

(٦) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ .

(٧) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٠ ، وفيه : «والحِبر : المداد ؛ إنما سمي لأنه يُحَسَّنُ به» .

(٨) أخرجه عنهما ابن جرير ٢١/ ٢٨ ، والثعلبي ٨/ ١٦٦ أ ، واقتصر عليه الزَّجَّاج ٤/ ١٨٠ ، ولم ينسبه .
ـ عبدالرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي ، أبو عمرو الفقيه ، تقدمت ترجمته .
ـ يحيى بن أبي كثير ، الطائي مولاهم ، أبو نصر اليماني ، اسم أبيه صالح ، وقيل : غيره ، أحد الأعلام الحفاظ ، ثقة ثبت ، لكنه يدلس ويرسل ، روى عن أبي أمامة الباهلي في صحيح مسلم ، ولكنه مرسل ، وروى عنه الأوزاعي ومعمر ومحمد بن جابر وغيرهم ، توفي سنة ١٣٢هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧ ، وتقريب التهذيب ١٠٦٥ .

١٦. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية . قال أبو إسحاق : «أخبر أن حال المؤمنين : السماعُ في الجنة ، والشغلُ بغاية النعمة ، وأن حال الكافرين : العذاب الأليم ، هم حاضروه أبداً ، غير مخفَّف عنهم» .

١٧. ثم ذكر ما تُدرك به الجنة فقال : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾[١] . قال الكلبي ومقاتل والفرَّاء : «فصلُّوا لله»[٢] .

روى مِقْسَمُ وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : «كلُّ تسبيح في القرآن فهو : صلاة» ، وقال مجاهد : «كل سُبْحَةٍ في القرآن : صلاة»[٣] .

قال المُبرِّد : «والعرب تقول : حتى أفرغ من سُبحتي ؛ أي من صلاتي . والتسبيح : اسم الصلاة ، قال الله تعالى : ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات :١٤٣] ؛ أي من المصلين» .

قال صاحب النظم : «فتكون سبحان الله على تأويل : سبَّحوا لله ، فلمَّا صُرف قوله : سبَّحوا إلى مصدره نُصبَ ليُعلم أن معناه الإغراء والأمر ، كما قال عز وجل : ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد :٤] ؛ أي فاضربوا الرقاب» . هذا كلامه . وروي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس ، فقال : «أرأيتَ الصلواتِ الخمس تجدها في القرآن ؟ قال : نعم ؛ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المغرب ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الغداةُ ، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر ، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور :٥٨]»[٤] .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٠ .

(٢) تنوير المقباس ٣٣٩ ، وتفسير مقاتل ٧٧ ب ، ومعاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٣ .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٩ ، وفيه : (سجدة) بدل (تسبيحة) ، فلعل الصواب : (تسبيحة للآية) . وضبط السبحة من التهذيب (سبح) ٤/ ٣٣٩ .

(٤) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٣ ، وابن جرير ٢١/ ٢٩ ، وفيه : «ثم قرأ : ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾» ، وأخرجه الحاكم ٢/ ٤٤٥ ، كتاب : التفسير ، رقم ٣٥٤١ ، وقال : «صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي» .

وروى أبو عياض عنه ، قال : «جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة ؛ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المغرب والعشاء ، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجرُ ، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر»[١] .

١٨. قوله : ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : وهو ابتداء الآية الثانية في ذكر بيان المواقيت . قال ابن عباس : «يريد : يحمده أهل السماوات وأهل الأرض ، ويصلُّون له ويسجدون» .

وقال مقاتل : «يحمده أهل السماوات : الملائكة ، ويحمده المؤمنون في الأرض»[٢] .

قوله : ﴿تُظْهِرُونَ﴾ ؛ أي تدخلون في وقت الظهيرة[٣] ؛ وهو نصف النهار ، وقد مرَّ[٤] . يقال : أظهر مثل : أصبح ، وأضحى ، وأمسى .

١٩. قوله : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ . قال عبدالله : «هي النطفة تخرج من الرجل ميتة ، وهو حي ، ويخرج الرجل منها حياً ،

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٢٩ من طريق الحكم بن أبي عياض ، وأخرجه من طريق آخر الثعلبي ٨/ ١٦٧ أ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٧ ب .

(٣) في (ب) : (الظهر) .

(٤) عند قوله تعالى : ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور :٥٨] ، ولم أجد في تفسير الواحدي لها إلَّا قوله : ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ يريد : المقيل .

وهي ميتة»[١] ، ونحو هذا قال مقاتل[٢] ، وهذه الآية مما قد تقدَّم القول فيها[٣] .

قوله تعالى : ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؛ أي يجعلها تنبت وذلك حياتها[٤] .

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ . قال مقاتل : «وهكذا تخرجون يا بني آدم من الأرض يوم القيامة بالماء كما يخرج العُشب من الأرض بالماء ؛ وذلك أن الله تعالى يرسل يوم القيامة ماء الحيوان من السماء السابعة على الأرض بين النفختين كمني الرجال

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٠ ، وأخرج نحوه أيضاً عن ابن عباس ، وأخرج عن الحسن ، قال : «المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن» . ومثل ذلك : الطير من البيضة ، والنخل من النواة . والآية عامة تشمل جميع ما ذكر ، وإن كان الأقرب لسياق الآية أن المراد بها ضرب الأمثلة الحسية من المخلوقات على وحدانية الله عز وجل ، وعلى البعث بعد الموت ، ويدل على هذا قول الله تعالى بعد ذلك : ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ، والله أعلم .

(٢) تفسير مقاتل ٧٧ ب ، واقتصر عليه الزَّجَّاج ٤/ ١٨١ ، ولم ينسبه .

(٣) قال الواحدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [آل عمران :٢٧] : «أكثر المفسرين على أن معناه : تخرج الحيوان من النطفة ، وتخرج النطفة من الحيوان» ، وقال الكلبي : «تخرج الفرخ من البيضة ، وتخرج البيضة من الطير» ، وهذا كالأول ؛ لأن البيضة للطير بمنزلة النطفة لسائر الحيوانات ، وقال ابن عباس في رواية عطاء والحسن : «تخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والمؤمن حي الفؤاد ، والكافر ميت الفؤاد ، دليله قوله : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا﴾ [الأنعام :١٢٢]» . انظر : البسيط ١/ ٣١٣ ، تحقيق : الحمادي .

(٤) تفسير مقاتل ٧٧ ب ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨١ .

فتنبت عظام الخلق ولحومهم وجلودهم في قبورهم نبات العُشب[١] ، كما ينبتون في بطون أمهاتهم»[٢] ، وهذا قول الكلبي والسُّدِّي[٣] .

---

(١) تفسير مقاتل ٧٧ ب .

(٢) هذا جزء من حديث طويل موقوف على عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أخرجه الحاكم من طريق سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء ، قال : «كنَّا عند عبدالله بن مسعود ـرضي الله عنه ـ فذُكر عنده الدجال ، فقال عبدالله بن مسعود : تفترقون أيها الناس لخروجه على ثلاث فرق : فرقة تتبعه ، وفرقة تلحق بأرض آبائها بمنابت الشيح ، وفرقة تأخذ شط الفرات يقاتلهم ويقاتلونه . . . . إلى أن قال : ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون . . . . قال : فيرسل الله ماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت لحمانهم وجثمانهم من ذلك الماء كما ينبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ عبدالله : ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر :٩]» . قال الحاكم : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه» ، وقال الذهبي : «ما احتجا بأبي الزعراء» . انظر : المستدرك على الصحيحين ٤/ ٦٤١ ، كتاب : الأهوال ، رقم ٨٧٧٢ . وهذا الحديث معروف عند أهل العلم بحديث الشفاعة الذي يرويه أبو الزعراء عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، وفيه أن النبي ﷺ رابع شفيع يقوم يوم القيامة ، واسم أبي الزعراء : عبدالله بن هانئ ، قال عنه البخاري : عبدالله بن هانئ ، أبو الزعراء الكوفي ، روى عن ابن مسعود ـرضي الله عنه ـ في الشفاعة : «ثم يقوم نبيكم رابعهم» ، والمعروف عن النبي ﷺ : «أنا أول شافع» ، ولا يتابَع على حديثه . انظر : التاريخ الكبير ٥/ ٢٢١ ، رقم ٧٢٠ ، وقال ابن عدي : «يروي سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء ، عن عبدالله بن مسعود إنْ كان قد سمع من عبدالله بن مسعود» . انظر : الكامل في ضعفاء الرجال ٤/ ١٥٤٩ . وقد وقعت تسمية أبي الزعراء في تحقيق الألباني لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية ٤١٠ ، بالوليد بن يحيى ، ولا أدري كيف وقع ذلك ، فلعله لم يقف على كلام البخاري ، ولا ابن عدي ، حيث أحال على الهيثمي وحده في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٠ ، والهيثمي ذكره بكنيته ، ونقد هذه الرواية لمخالفتها الحديث الصحيح : «أنا أول شافع» ، ونسب هذا النقد الألباني إلى الهيثمي ، مما يدل على أنه لم يطلع على كلام البخاري في هذا الموضع ، والله تعالى أعلم .

أمَّا قول إن السماء تمطر مطراً ينبت منه أجساد العباد فثابت من حديث عبدالله بن عمرو ـرضي الله عنهما ـ في حديثٍ مرفوع أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٢٥٩ ، كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، رقم ٢٩٤٠ . والشاهد فيه : قول النبي ﷺ : « ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطَّلُ أو الظِّلُ [نعمانُ الشاكُّ] فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» .

(٣) تنوير المقباس ٣٣٩ .

وقال أبو إسحاق : «كذلك يخرجون من قبورهم مبعوثين ، ومعنى الكاف نصب لقوله : ﴿تُخْرَجُونَ﴾ ، والمعنى : أن بعثكم عليه -عز وجل- كخلقكم ؛ أي هما في قدرته متساويان[١] ، يعني أن ذكر ابتداء الخلق بقوله : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ يعني الإنسان من النطفة ، ثم قال : ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾» .

وقرأ حمزة والكسائي : (تَخْرُجُونَ) بفتح التاء[٢] ، وحجة هذه القراءة قوله : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج :٤٣][٣] ، أضاف الخروج إليهم .

٢٠. قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ : ومن دلالاته على توحيده وقدرته . ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ . قال ابن عباس والمفسرون : «يعني آدم أبا البشر[٤] . ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾» ، وقال ابن عباس : «من لحم ودم» ، يعني ذرية آدم ، ينتشرون : «ينبسطون في الأرض» ، قاله مقاتل[٥] ، وقال ابن عباس : «تذهبون وتجيئون» . ومعنى الآية : تعجيبهم من خلقه إياهم من تراب ، ثم صيرورتهم بشراً ينتشرون في الأرض .

٢١. قوله تعالى : ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ . قال الكلبي : «يقول : جعل لكم مِنْ خلقكم آدمياً مثلكم ، ولم يجعله من الجن ولا من غيره»[٦] ، وقال غيره : «يعني خَلْق حواء من ضِلَع من أضلاع آدم» ، حكاه

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨١ .

(٢) قرأ حمزة ، والكسائي : ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بفتح التاء ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضم التاء . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٦ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٥ ، وإعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ١٩٥ .

(٣) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٥ .

(٤) تفسير مقاتل ٧٨ أ . وتفسير ابن جرير ٢١/ ٣١ ، وأخرجه عن قتادة الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٧ ب .

(٥) تفسير مقاتل ٧٨ أ .

(٦) ورد في تنوير المقباس ٣٤٠ ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٧ ب ، ولم ينسبه .

الزَّجَّاج ، وهو قول قتادة[١] ، وذكر غيره أن معنى ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أنه خلق النساء من نطف الرجال[٢] .

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ : جعل بين الزوج والمرأة المودة والرحمة ، فهما يتوادان ويتراحمان ، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما ، وهذا معنى قول مقاتل والمفسرين[٣] . وروى عطاء عن ابن عباس في قوله : ﴿مَّوَدَّةً﴾ يعني الجماع ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني الولد ، وهو قول الحسن[٤] .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ ، ولم ينسبه ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٣١ عن قتادة . وأمَّا قول إن حواء عليها السلام خلقت من ضلع من أضلاع آدم ـعليه السلامـ فمروي عن جمع من المفسرين . انظر : تفسير ابن جرير ٧/ ٥١٥ ، تحقيق : محمود شاكر ، وابن أبي حاتم ٣/ ٨٥٢ ، وهي آثار موقوفة ، ليس فيها شيء مرفوع للنبي ﷺ ، وقد صرَّح ابن إسحاق بأخذ هذه الأخبار عن أهل الكتاب ، فقال : «أُلقي على آدم ـعليه السلامـ السِنة ، في ما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم . . .» . أخرجه ابن جرير ٧/ ٥١٦ .
وأمَّا مسألة خلق المرأة من ضلع فثابتة في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، ولفظه : «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً» . البخاري ، كتاب : النكاح ، رقم ٥١٨٥ ، فتح الباري ٩/ ٢٥٢ ، ومسلم ٢/ ١٠٩٠ ، كتاب : الرضاع ، رقم ١٤٦٨ ، وزاد : «وكسرها طلاقها» . قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث : «قوله : (فإنهن خلقن من ضلع) كأن فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق في المبتدأ ، عن ابن عباس ، أن حواء خلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم» . انظر : فتح الباري ٩/ ٢٥٣ .

(٢) لعله يعني مقاتل ؛ إذ قال في تفسيره ٧٨ أ : «﴿أَنفُسِكُمْ﴾ يعني : بعضكم من بعض» ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٧ ب ، ولم ينسبه ، وذكر نحوه الماوردي عن علي بن عيسى في النكت والعيون ٦/ ٣٠٥ .
والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن لا تعارض بين هذه الأقوال ، فالقول الأول يدل على أن الزوج من جنس الآدمي ، وهو بهذا يتفق مع القولين بعده ، وأفاد القول الثاني أن أصل خلق الأنثى (زوج الذكر) من ضلع على ما سبق بيانه ، وأفاد القول الثالث التكاثر والتناسل عن طريق النطف ، والله تعالى أعلم .

(٣) تفسير مقاتل ٧٨ أ ، وتفسير ابن جرير ٢١/ ٣١ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٩٠ عن الحسن ، وعزاه إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الـذي ذكر من صُنعـه . ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته .

٢٢ . ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على توحيده وقدرته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . قال مقاتل : «بأن الله خالقهما ، كقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان :٢٥] ، [الزمر :٣٨]»[١] .

قولـه تعـالى : ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ : يعني اختـلاف اللغات كالعربية والعجمية والتركية وغيرها . وقولـه : ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ مختلفة ؛ لأن الخلق من بين أبيض وأسـود وأحمـر[٢] . قال الكلبي : «وهم ولد رجـل واحد وامرأة واحدة[٣] ، وألسنتهم وألوانهم مختلفة» .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ . قـال ابن عباس : «يريد البر والفاجر» ، وعنه أيضـاً : «الإنس والجن»[٤] . وقرأ حفص بكسر اللام[٥] . قال الفرَّاء : «وهو وجه جيد ؛ لأنه قد قال : ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم :٢٤] ، ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران :١٩٠]»[٦] .

---

(١) تفسير مقاتل ٧٨ أ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٨ أ بمعناه ، من قوله : ﴿وَٱخْتِلَٰفُ﴾ .

(٣) ذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٧ ب ، ولم ينسبه .

(٤) تنوير المقباس ٣٤٠ .

(٥) قرأ حفص عن عاصم : ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام (جمع : عالـم) ، وقرأ الباقون : ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بنصب اللام . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٦ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٤ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٤ .

(٦) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٣ .

٢٣. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾. قال ابن عباس: «يريد طلب المعيشة»[١]. قال صاحب النظم: «تأويله: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، اعتباراً بقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣]».

قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: يعني سماع اعتبار وتدبر. قال ابن عباس: «يريد: لقوم يجيبون داعي الله، وجعل السماع بمعنى الإجابة»، وقال الكلبي ومقاتل: «﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مواعظ الله فيوحدون ربهم»[٢].

٢٤. قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾. قال الأخفش: «أراد أن يريكم، فحذف أن؛ لأن المعنى يدل عليه، وفي حرف عبدالله: ﴿يُرِيكُمُ﴾[٣]، وأنشد قول طرفة:

أَلَا أَيُّهذا الزَّاجِرِي أَحضُرَ الوغى ... البيت[٤]

أراد: أن أَحضُرَ»[٥].

---

(١) تنوير المقباس ٣٤٠.

(٢) تفسير مقاتل ٧٨ أ.

(٣) لم أجد هذه القراءة عند ابن خالويه، ولا ابن جني.

(٤) البيت لطرفة من معلقته في ديوانه ١٠٥، وفيه (اللائمي) بدل: (الزاجري)، وعجزه:
وأنْ أشهدَ اللذات هلْ أنتَ مُخلدي ؟
وأنشده كاملاً منسوباً سيبويه ٣/ ٩٩، والثعلبي ٨/ ١٦٧ ب، وأنشده ولم ينسبه الأخفش ٢/ ٦٥٧، وابن جرير ٢١/ ٣٢، وفي حاشية ابن جرير: «رواية البيت عند البصريين: أحضرُ، بالرفع؛ لأنه لـمَّا أضمر «أن» قبله ذهب عملها، وعند الكوفيين: أحضرَ، بالنصب؛ لأنها وإن أضمرت فكأنها موجودة لقوة الدلالة عليها». الوغى: الحرب، أراد: أيها الإنسان الذي يلومني على شهودي الحرب، وتحصيل اللذات، هل تخلدني في الدنيا إذا كففتُ عن الحرب؟ وأنشد صدره ولم ينسبه أبو علي في المسائل العسكرية ٢٠٢، وأنشد صدره ونسبه ابن جني في سر صناعة الإعراب ١/ ٢٨٥.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٧، وليس فيه ذكر لقراءة عبدالله، ولم أجدها عند ابن خالويه.

وقال أبو إسحاق : «المعنى : ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق ، هذا أجود في العطف ؛ لأن قبله خلق السماوات ، ومنامكم ، فيكون اسماً منسوقاً[١] على اسم ، ثم حُذف ، ودلَّ عليه قوله : ﴿وَمِنَ﴾ كما قال الشاعر :

وما الدهرُ إلَّا تارتانِ فمنهُما أموتُ وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ[٢]

والمعنى : فمنهما تارة أموتها ، أي أموت فيها»[٣] ، وقال الفرَّاء : «أراد : فمنهما ساعة أموتها ، وساعة أعيشها»[٤] . قال أبو إسحاق : «ويجوز أن يكون المعنى : ويريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته ، فيكون عطفاً بجملة على جملة»[٥] ، وهذان القولان ذكرهما الفرَّاء[٦] .

قوله تعالى : ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ . قال ابن عباس : «خوفاً من الصواعق ، وطمعاً [من آياته فيكون][٧] بالرحمة» .

وقال مقاتل وقتادة : «خوفاً من الصواعق للمسافر ، ولمَن كان بأرض ، وطمعاً للمقيم»[٨] ، وهذا مما تقدَّم تفسيره في سورة الرعد[٩] .

---

(١) أي : معطوفاً .

(٢) البيت لتميم بن مقبل في ديوانه ٢٤ ، أنشده ونسبه سيبويه ٢/ ٣٤٦ ، وأنشده ولم ينسبه الفرَّاء ٢/ ٣٢٣ ، وابن جرير ٢١/ ٣٣ ، والزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ . وفي حاشية سيبويه : «الشاهد فيه : حذف الاسم لدلالة الصفة عليه ، والتقدير : فمنهما تارة أموت فيها» .

(٣) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ .

(٤) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٣ .

(٥) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ .

(٦) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٣ .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (أ) .

(٨) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٢ عن قتادة بلفظ : «خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم» ، وتفسير مقاتل ٧٨ أ ، وقد ورد فيه : «وخوفاً من الصواعق لمَن كان بأرض» .

(٩) قال الواحدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد :١٢] : «قال ابن عباس : يريد : خوفاً من الصواعق وطمعاً في المطر» . =

قال أبو إسحاق : «وهما منصوبان على المفعول له . المعنى : يريكم للخوف والطمع ، وهو خوفٌ للمسافر ، وطمعٌ للحاضر»[١] .

٢٥. قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ . قال ابن مسعود : «قامتا على غير عمد بأمره»[٢] .

وقال الفرَّاء : «يقول : تدوما قائمتين بأمره بغير عَمَدٍ»[٣] .

قال ابن عباس : «يريد : بقوته وقدرته» .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ . قال الكلبي : «يعني النفخة الأخيرة»[٤] ، وقال مقاتل : «يدعو إسرافيلَ من صخرة بيت المقدس حتى ينفخ في الصور عن أمر الله»[٥] .

= وهو قول الحسن ، وقال قتادة : «خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم» . وهذا قول أكثر أهل التأويل . قال أبو إسحاق وأبو بكر : «الخوف للمسافر لمَّا تأذى به من المطر ، كما قال الله تعالى : ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء :١٠٢] ، والطمع للحاضر المقيم ؛ لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب» .

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ .

(٢) ذكره عن ابن مسعود مقاتل ٧٨ أ ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٤ عن قتادة .

(٣) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٣ ، وهو قول الزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ .

(٤) تنوير المقباس ٣٤٠ .

(٥) تفسير مقاتل ٧٨ أ . وقد ورد في الصور أحاديث كثيرة ، بعضها في الصحيح ، وبعضها في غيره ، فمن ذلك حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردةً من قِبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلَّا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌّ رزقهم =

وقوله : ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ معناه التأخير وإن قدم ؛ لأن التقدير : إذا أنتم تخرجون من الأرض ، كذا قال مقاتل وأكثر العلماء[١] .

قال أبو إسحاق : «أي إذا دعاكم للبعث حييتم بعد الموت»[٢] . ولهذا جعل بعضهم تمام الوقف عند قوله : ﴿دَعْوَةً﴾ ؛ لأن قوله : ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ليس من صلة الدعوة ، وهو من صلة ﴿تَخْرُجُونَ﴾ ، وهو مذهب نافع . قال يعقوب : «هذا من الوقف الذي يحق على العالم علمه» ، وخالفه أبو حاتم ، وقال : «أظن الوقف : ﴿دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي وأنتم في الأرض ، كما تقول : دعاكم من القبور ، ودعوت فلاناً من بيته ؛ أي هو في بيته»[٣] .

وقال النحاس : «﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ ليس بوقف ؛ لأنه لم يأتِ بجواب ﴿إِذَا﴾ ، وجواب ﴿إِذَا﴾ على قول الخليل وسيبويه : ﴿أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ؛ أي

= حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلَّا أصغى ليتا ورفع ليتا قال وأول مَن يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس» . أخرجه مسلم ٤/ ٢٢٥٨ ، كتاب : الفتن وأشراط الساعة ، رقم ٢٩٤٠ . اللِّيت : صفحة العنق ، وهما لِيتان ، وأصغى : أمال . انظر : النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٨٤ .

وأمَّا الأحاديث الضعيفة فكثيرة ، منها حديث الصور الطويل الذي أخرجه الطبراني في كتابه الأحاديث الطوال ٣٦ ، المطبوع مع المعجم الكبير للطبراني ٢٥/ ٢٦٦ ، وقد ساقه بطوله ابن كثير في تفسيره ٢/ ١٤٦ عند قوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام :٧٣] ، ثم قال : «هذا حديث مشهور ، وهو غريب جداً ، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة ، وفي بعض ألفاظه نكارة» .

أمَّا ما ذكره الواحدي عن مقاتل في تحديد المكان ؛ من صخرة بيت المقدس ، فلم أجده بهذا اللفظ في الأحاديث ، وهذا التحديد يحتاج إلى دليل ، والله أعلم .

(١) تفسير مقاتل ٧٨ ب ، وتفسير ابن جرير ٢١/ ٣٤ ، وأخرجه عن الضحاك الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٨ أ ، ونسبه إلى أكثر العلماء ، ولم يسمِّهم ، وذكره النحاس عن أبي حاتم في القطع والائتناف ٢/ ٥٣٢ .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٢ ، وليس فيه كلمة : (حييتم) .

(٣) القطع والائتناف ٢/ ٥٣٢ .

خرجتم» ، وكذا قال سيبويه : «﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم :٣٦] تقديره عنده : قنطوا»[١] . والقول ما قال النحاس .

٢٦. قوله تعالى : ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ . قال مقاتل : «كلهم عبيده ، وفي ملكه»[٢] . ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ . قال : «يعني مقرون له بالعبودية ، يعلمون أن الله ربهم وهو خلقهم» ، وهذا قول قتادة واختيار ابن قتيبة[٣] . والقنوت على هذا القول معناه طاعة الإقرار[٤] .

وقال الكلبي : «وهذا خاص لمَن كان منهم مطيعاً»[٥] ، وعلى هذا لفظ الآية عام ، ومعناها الخصوص[٦] .

وقال أبو إسحاق : «معنى ﴿قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون طاعة لا يجوز أن يقع معها معصية ؛ لأن القنوت : القيام بالطاعة ، ومعنى الطاعة هاهنا : أن مَن في السماوات والأرض مخلوقون كما أراد الله -عز وجل- ، لا يقدر أحد على تغيير الخِلقة ، ولا ملَك مقرب ، فآثار الصَّنعة والخِلقة تدل على الطاعة ؛ ليس يعني بها طاعة العباد ،

---

(١) القطع والائتناف ٢/ ٥٣٢ ، وقد سأل سيبويه الخليلَ عن هذه الآية . انظر : الكتاب ٣/ ٦٣ ، وذكره المُبرِّد في المقتضب ٢/ ٥٨ . وإنما قدمت كتاب النحاس لنقل الواحدي عنه مذهب الخليل وسيبويه .

(٢) تفسير مقاتل ٧٨ ب .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٥ عن قتادة ، وذكر في تأويل مشكل القرآن ٤٥٢ ، وغريب القرآن ٣٤٠ ، وهو قول مقاتل في تفسيره ٧٨ ب .

(٤) ذكر ابن الأنباري أن القنوت يقسم في كلام العرب أربعة أقسام ، هي : الطاعة ، الصلاة ، طول القيام ، السكوت . انظر : الزاهر في معاني كلمات الناس ١/ ٦٨ .

(٥) تنوير المقباس ٣٤٠ .

(٦) قال ابن جرير ٢١/ ٣٥ : «وقال آخرون : هو على الخصوص . والمعنى : وله من في السماوات والأرض من ملك وعبد مؤمن لله مطيع دون غيرهم» ، ثم ذكر معناه بإسناده عن ابن زيد .

إنما هو طاعة الإرادة والمشـيئة»[١] ، وهذا معنى قول ابن عباس : «كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث ، وإن عصوا في العبادة»[٢] ، وهذا مُفسَّر في سورة البقرة[٣] .

٢٧. قولـه تعـالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ . قـال مقاتـل : «يعني خلق بني آدم بدأ خلقهم ولم يكونوا شـيئاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يعني يبعثهـم في الآخرة أحياءً بعد موتهم كما كانـوا ، قال : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾»[٤] . واختلفوا في هذا ؛ فذهب كثير من أهل التفسـير والمعاني أن ﴿أَهْوَنُ﴾ هاهنا بمعنى هين . يقـول : «وهو هيِّن عليه» ، وهذا قول الحسن ، والربيع ، وقتادة ، والكلبي ، قالوا : «هو هيِّن عليه ، أول خلقه وآخره ، وما شيء عليه بعزيز»[٥] .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ .

(٢) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٥ .

(٣) قال الواحدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ [البقرة :١١٦] : «قال مجاهد وعطاء والسُّدِّي : مطيعـون . قال أبو عبيد : أصل القنوت في أشـياء ؛ منها : القيام ، وبه جـاءت الأحاديث في قنوت الصلاة ؛ لأنه إنما يدعو قائماً . . . . والقنوت أيضاً : الطاعة . . . .» ، وقال الزَّجَّاج : «المشهور في اللغة أن القنوت الدعاء ، وحقيقة القانت أنه القائم بأمر الله . . . .» ، وقال ابن عباس في هذه الآية : «قوله : ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ راجـع إلى أهل طاعتـه ، دون الناس أجمعـين ، وهو من العموم الـذي أريد به الخصوص» ، وهو اختيار الفرَّاء .

(٤) تفسير مقاتل ٧٨ ب .

(٥) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٦ عن ابن عباس وقتادة والربيع بن خُثيم ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٨ أ عن الربيع بن خُثيم والحسـن ، وقـال : «وهو رواية العوفي عن ابن عباس» ، وذكره السـيوطي عن الحسن ، وعزاه لابن المنذر في الدر المنثور ٦/ ٤٩١ ، وتنوير المقباس ٣٤٠ .

وهذا مذهب أبي عبيدة ، وذكره الـمُبرِّد والزَّجَّاج[١] ، وقالوا : «يجيء أفعل بمعنى الفاعل» ، وأنشد[٢] لمعن بن أوس[٣] :

لعمرُكَ ما أدري وإني لأَوجلُ

يعني لوجل[٤] .

وقال الفرزدق :

بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ[٥]

وأنشد الـمُبرِّد :

قُبِّحْتُمْ يا آلَ زيدٍ نفراً ألأمَ قومٍ أصغرَا وأكبرَا[٦]

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢١ ، والكامل ٢/ ٨٧٦ ، والمقتضب ٣/ ٢٤٦ ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ .

(٢) هكذا في النسختين ، ولعل الصواب : (وأنشدوا) .

(٣) معن بن أوس بن نصر بن زياد المزنين ، شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، له مدائح في جماعة من الصحابة ، رحل إلى الشام والبصرة ، وكُفَّ بصره في أواخر أيامه ، مات في المدينة . انظر : خزانة الأدب ٧/ ٢٦١ ، والأعلام ٧/ ٢٧٣ ، وقد ذكره ابن حجر في القسم الثالث (المخضرمون الذين أدركوا الجاهلية والإسلام) ، ولم يرد في خبر قطُّ أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ . انظر أيضاً : الإصابة في معرفة الصحابة ٦/ ١٧٩ .

(٤) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢١ ، وأنشد البيت كاملاً ، ولم ينسبه ، وعجزه :

على أيِّنا تعدو المنيةُ أولُ

وهو في ديوان معن بن أوس ٣٦ ، وأنشده الـمُبرِّد في الكامل ٢/ ٨٧٦ ، وذكره المقتضب ٣/ ٢٤٦ ، وابن جرير ٢١/ ٣٧ ، ونسباه لمعن بن أوس ، وأنشده الزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ ، ولم ينسبه .

(٥) انظر : ديوان الفرزدق ٢/ ١٥٥ ، وصدره :

إنَّ الذي سمكَ السماءَ بنى لنا

أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢١ ، ونسبه ، وذكره الـمُبرِّد في الكامل ٢/ ٨٧٧ ، وابن جرير ٢١/ ٣٧ .

(٦) ذكره الـمُبرِّد في الكامل ٢/ ٨٧٧ ، والمقتضب ٣/ ٢٤٧ ، ولم ينسبه ، وقال بعده : «يريد : صغاراً وكباراً» ، وورد في حاشية المقتضب : «لم يعرف قائل البيت» ، وهو في خزانة الأدب ٨/ ٢٤٦ غير منسوب .

ومثله قولهم : الله أكبر ؛ أي الكبير ، ورجل أوحد الناس ؛ أي أحد الناس[١] .

قال قتادة : «وفي حرف ابن مسعود : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾»[٢] ، وهذا معنى رواية عطاء عن ابن عباس ، قال : «يريد : هان الأول والآخر عليه»[٣] .

القول الثاني في هذه الآية ما ذهب إليه عكرمة ومجاهد : «الإنشاء أهون عليه من الابتداء ، والإعادة أهون عليه من البدء» ، وهو معنى رواية الوالبي عن ابن عباس[٤] ، وهذا ليس على ظاهره ؛ لأنه لا يجوز أن يكون شيء على الله أهون من شيء[٥] .

ووجهه ما ذكره مقاتل ، والمُبرِّد ، والفرَّاء ، والزَّجَّاج . قال مقاتل : «يقول : البعث أيسر عليه عندكم يا معشر الكفار من الخلق الأول»[٦] .

وقال المُبرِّد : «﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ عندكم ؛ لأنكم قد أقررتم بأنه بدأ الخلق ، وإعادة الشيء عند المخلوقين أهون من ابتدائه»[٧] ، ونحو هذا قال

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٢١ ، ولم ينشد البيت ، والزاهر في معاني كلمات الناس ١/ ٢٩ .

(٢) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٢ ، ولم أجده عند ابن خالويه .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٦ من طريق محمد بن سعد بسنده عن ابن عباس ، ولفظه : «كل شيء عليه هيِّن» .

(٤) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٦ عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة ، وأخرجه عن مجاهد وعكرمة ، وذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٨ أ عن مجاهد وعكرمة ، وقال : «وهي رواية الوالبي عن ابن عباس» .

(٥) أخرجه بسنده الفرَّاء عن مجاهد ، ثم قال : «ولا أشتهي ذلك ، والقول فيه : أنه مثل ضربه الله فقال : أتكفرون بالبعث ، فابتداء خلقكم من لا شيء أشد» . انظر : معاني القرآن ٢/ ٣٢٤ .

(٦) تفسير مقاتل ٧٨ ب .

(٧) ذكر في المقتضب ٣/ ٢٤٥ بلفظ : «تأويله : وهو عليه هيِّن ؛ لأنه لا يقال : شيء أهون عليه من شيء» .

الفرَّاء[١] . واختار أبو إسحاق هذا الوجه ، وقال : «إن الله خاطب العباد بما يعقلون فأعلمهم أنه يجب عندهم أن يكون البعث أسهل من الابتداء والإنشاء»[٢] .

وفي الآية قول ثالث ؛ وهو أن الكناية في ﴿عَلَيْهِ﴾ تعود إلى الخلق . والمعنى : أن الإعادة أهون على الخَلْقِ من الابتداء[٣] ، وهذا قول ابن عباس في رواية أبي صالح والسُّدِّي . قال ابن عباس : «وهو أهون على المخلوق ؛ لأنه يقول له يوم القيامة : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام :٧٣] ، [النحل :٤٠] ، [مريم :٣٥] ، [يس :٨٢] ، [غافر :٦٨] وأول خلقه نطفة ثم علقة ثم مضغة»[٤] .

وقال السُّدِّي : «ليس يشتد على الله شيء ، ولكن يعني به المخلوق ، يصاح به فيقوم سوياً ؛ أهون عليه من أن يكون كما خلقه أولاً ؛ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم يعود رضيعاً ثم فطيماً» .

وقال عطاء : «هو أهون على المخلوق أن يُبعث سميعاً بصيراً ، يَفهم ويفقه ويعقل ، ليس مثل المولود لا يعقل حتى يكبر» . قال أبو إسحاق : «ومعنى هذا القول أن البعث أهون على الإنسان من إنشائه ؛ لأنه يقاسي في النشأة ما لا يقاسيه في الإعادة والبعث»[٥] .

---

(١) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٤ .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ .

(٣) ذكر هذا القول ابن جرير ٢١/ ٣٦ ، والزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ ، ولم ينسباه .

(٤) أخرجه بسنده الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٣٢٤ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ٣٨٢ عن ابن عباس من طريق أبي صالح ، وذكره أيضاً الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٨ أ .

(٥) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ . وقد اعترض على هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢١ ، فقال بعد أن ذكر أن المراد في الآية : «وهو هيِّن عليه» ، قال : «فإن احتج محتج فقال : إن الله لا يوصف بهذا ، وإنما يوصف به المخلوق ، فالحجة عليه قول الله تعالى : ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب :١٩] ، وقوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة :٢٥٥]» . =

قوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . قال ابن عباس : «أي ليس كمثله شيء»(١) .

وقال قتادة : «مثله الأعلى أنه : لا إله إلَّا هو في السماوات والأرض»(٢) ، وعلى هذا يكون المثل بمعنى الصفة ، يعني : وله الصفة العليا ، وهي أنه : لا إله غيره . وذكرنا قول مَن أجاز أن يكون المثَل بمعنى الصفة عند قوله : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد :٣٥](٣) .

وقال قوم : «﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني ما ضرب من المثل في الإعادة أهون على المخلوق من الابتداء ؛ لأن مَن قدر على ابتداء شيء كان أحرى أن يقدر على إعادته» ، وهذا اختيار الفرَّاء والزَّجَّاج . قال الزَّجَّاج : «أعلمهم أن يجب عندهم أن يكون البعث أسهل من الابتداء ، وجعله مثلاً لهم ، ثم قال : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ؛ أي قوله : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه لكم مثلاً في ما يصعب ويسهل»(٤) .

= ولم يرجح الواحدي شيئاً من هذه الأقوال . والذي يظهر من سياق الآيات أن المراد إثبات البعث والرد على المنكرين له ، المستبعدين وقوعه بعد موتهم وفنائهم ، فأعلمهم الله ـعز وجلـ أن إقرارهم بالخلق الأول يستلزم الإيمان بإعادتهم ؛ إذ هي أهون وأيسر ، ويدل على ذلك تقدم الآيات في إثبات الربوبية ، التي منها قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ، والله أعلم .

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٨ من طريق علي بن أبي طلحة ، وذكره عنه الثعلبي ٨/ ١٦٨ أ .

(٢) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٨ عن قتادة ، وتفسير مقاتل ٧٨ ب بمعناه ، واقتصر على هذا القول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ٣٨٢ ، ولم ينسبه .

(٣) أطال الواحدي الكلام في تفسير هذه الآية عن وجه ارتفاع : ﴿مَّثَلُ﴾ فذكر قول سيبويه والمُبرِّد أنه مرفوع على الابتداء بتقدير : في ما نقص عليكم مثل الجنة ، واختار هذا القول الأنباري وأبو علي ، ثم قال : «وقال قوم : المثل هاهنا بمعنى الصفة ، قالوا : ومعناها : صفة الجنة التي وعد المتقون» ، ونسبه لعمرو بن العلاء ، ثم ذكر نقد المُبرِّد وأبي علي لهذا القول ، ولم يرجح الواحدي في هذه المسألة ، وممن يمنع تفسيره بالصفة سيبويه في الكتاب ١/ ١٤٣ .

(٤) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٣ ، ومعاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٤ بنحوه .

وقال غيره من أهل المعاني مصححاً لهذه الطريقة : «معنى قوله : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ؛ أي ما يمثل به دليلاً صفته الذي هو طريق إلى معرفته من أن إنساناً إذا نسخ كتاباً فإعادة نسخه عليه أهون ، وكذلك إذا صاغ حُلياً ، هذا في مقدور العباد مع نقصانهم ، فمقدور مَن لا يلحقه النقص من وجهٍ أَوْلى أن يسع الإعادة» ، وعلى هذا المثل الأعلى هو المثل الذي ضربه الله لتحقيق بيان قدرته على الإعادة ، ووصف هذا المثل بأنه : ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ؛ لأنه مؤدٍّ إلى معرفةِ قدرة الله وصفتِه .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ : قال ابن عباس : «﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه» .

٢٨. قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ . قال مقاتل : نزلت في كفار قريش ؛ وذلك أنهم كانوا يقولون في إحرامهم : لبيك لا شريك لك إلَّا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، فقال الله : ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ يقول : وَصَف لكم شَبهاً من أنفسكم[1] .

قال الكلبي : «مِنْ مِثل خلقكم ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ يعني من عبيدكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ من أموالكم وعبيدكم وأهليكم ﴿فَأَنتُمْ﴾ وشركاؤكم من مماليككم في ما رزقناكم شرع ﴿سَوَآءٌ﴾»[2] .

---

(١) تفسير مقاتل ٧٨ ب ، ولم يذكره الواحدي في أسباب النزول .

(٢) تنوير المقباس ٣٤٠ ، وذكره عنه الثعلبي ٨/ ١٦٨ أ ، هكذا وردت عنده : «شرع سواء» ، وفي تنوير المقباس : «شرك» ؛ أي من الشراكة ، وهو أقرب ، والله أعلم . قال ابن عباس : «﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ في الآلهة ، وفيه» ، «تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً» ، وقد ذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في تفسير سورة الروم ، وقال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٥١٠ : «الضمير في قوله : فيه ، لله تعالى ؛ أي إن المثل لله وللأصنام» ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٩ من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس .

وقولـه : ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ . قال ابن عبـاس : «تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً»[١] ، وهو قول مقاتل ، والسُّدِّي ، قال : «يقول : مِـنْ مملوككم شركاؤكم في المـيراث الذي ترثونه من آبائكـم ، فأنتم تخافون أن يدخل معكم مملوككم في ذلك الميراث ، كما تدخلون أنتم فيه»[٢] .

قال الكلبي : «تخافون لائمتهم كما يخاف الرجل لائمة أخيه وأبيه وأقاربه»[٣] .

وقال أبو مجلز : «تخافون أن يقاسموكم أموالكم كما يقاسم بعضكم بعضاً»[٤] .

فهذه ثلاثة أقـوال في معنى قوله : ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مرجعها إلى معنـى واحد ؛ وهو أن عَبْدَ الرجل لا يكون مثلـه حتى يكون بينهما توارث ، وخوف لائمةٍ ومقاسـمةٍ . ومعنى الآية : إن الله تعالى يقـول : كيف تعدلون بي عبيدي ، وأنتم لا تعدلون عبيدكم بأنفسـكم . قال قتادة : «يقول : ليس مِنْ أحدٍ يرضى لنفسـه أن يشاركه عبده في ماله وزوجه حتى يكون مثله ، يقول : قد رضي بذلك ناسٌ لله فجعلوا معه إلهاً شريكاً»[٥] ، هذا قول المفسرين في هذه الآية .

وقـد شرح أصحاب المعاني هذه الآية أبين شرح ، قال صاحب النظم : «هذا مثل ضربه الله -عز وجل- للذين جعلوا له شريكاً ، فقال : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله وولده حتى يكون هو ومملوكه فيه سواء يخافه كما يخافه غيره من شريكٍ له لو كان معه ؟ فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم ، فِلمَ تجعلون لي عبيـدي شركاء ؟ والفاء في قوله : ﴿فَأَنتُمْ﴾ بمنزلـة حتى ، تأويله : حتى أنتم وعبيدكم فيه سواء» . انتهى كلامه .

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٩ من طريق عطاء الخرساني ، وذكره عنه الثعلبي ٨/ ١٦٨ أ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٨ ب بنحوه ، وذكر نحوه الماوردي عن السُّدِّي في النكت والعيون ٤/ ٣١١ .

(٣) تنوير المقباس ٣٤٠ .

(٤) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٣٩ ، وذكره عنه الثعلبي ٨/ ١٦٨ أ .

(٥) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٢ ، وفيه : (ونفسه) بدل : (وزوجه) ، وأخرجه بنحوه ابن جرير ٢١/ ٣٨ .

وقال ابن قتيبة : «﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ، وذلك أقرب عليكم . ﴿هَل لَّكُم مِّن﴾ شركاء من عبيدكم الذين تملكون ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ﴾ وعبيدكم ﴿سَوَآءٌ﴾ يأمرون فيه كأمركم ، ويحكمون كحكمكم ، وأنتم ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ؛ أي كما يخاف الرجلُ الحرُّ شريكه الحرَّ في المال يكون بينهما ، فلا يأمر فيه بشيء دون أمره ، ولا يُمضي فيه عطيةً بغير أمره ، وهو مِثلُ قوله : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات :١١] ؛ أي لا تغيبوا إخوانكم من المسلمين ، وقوله : ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور :١٢] ؛ أي بأمثالهم من المؤمنين خيراً ، يقول : فإذا كنتم أنتم بهذه المنزلة في ما بينكم وبين أقاربكم وأرقائكم ، فكيف تجعلون لله مِنْ عبيده شركاء في ملكه ؟ ومثلُه قوله : ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل :٧١] ، فجعل منكم المالك والمملوك . ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ يعني السَّادة ﴿بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مِنْ عبيدهم حتى يكونوا فيه شركاء . يريد : فإذا كان هذا لا يجوز بينكم فكيف تجعلونه لله ؟»[1] .

وقال أبو إسحاق : «أعلم الله -عز وجل- أن مملوك الإنسان ليس بشريكه في ماله وزوجته ، وأنه لا يخاف أن يرثه مملوكه ، يقول : فقد جعلتم ما هو مُلكٌ لله مِنْ خلقه مثلَ الله وأنتم كلكم بشر ليس مماليككم بمنزلتكم في أموالكم ، فالله -عز وجل- أجدرُ أن لا يُعدل به خلقُه» . انتهى كلامه[2] .

انتصب قوله : ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ وهو مضاف إلى الفاعل ، كما تقول : عجبت من اشترائك عبداً لا تحتاج إليه ، فإذا أضيف المصدر إلى المفعول ارتفع ما بعده ، تقول : عجبت من موافقتك كثرة شربِ الماء ؛ لأن المعنى : من أن وافقك ، والعرب تقول : عجبت من قيامكم أجمعون وأجمعين ؛ فمَن خفض أتبعه اللفظ ؛

(١) تأويل مشكل القرآن ٣٨٢ .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٤ .

لأنــه في الظاهر خفض ، ومَن رفع ذهــب إلى التأويل ؛ وذلك أنه في تأويل رفع ؛ لأنهم الفاعلون ، هذا قول الفرَّاء[١] .

وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ؛ أي كما بيَّنَّا في ضرب المثل من أنفسكم . قال مقاتل : «هكذا نبيِّن الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله الأمثال فيوحدونه» .

٢٩. ثم ذكر الله الذين ضرب لهم المثل ، فقال : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾[٢] : يعني الذين أشركوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعلمونه بأن مع الله شريكاً ، قاله مقاتل[٣] ، وقال ابن عباس : «يريد : بغير علم جاءهم من الله» .

وقوله تعالى : ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ . قال صاحب النظم : «هذا استفهام ، ومعناه النفي والإنكار على معنى : فلا هادي لمَن أضل الله ، يدل على ذلك قوله في النَّسَق عليه : ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾» .

٣٠. قال مقاتل : «ثم قال للنبي ﷺ : إن لم يوحِّدْ كفارُ مكة ربَّهم فوحِّدْ أنت ربَّك ، وهو قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ، فالمعنى : فأخلص دينك»[٤] ، ونحوه قال سعيد بن جبير ، وقال غيره : «سدِّد عملك»[٥] .

---

(١) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٤ .
(٢) تفسير مقاتل ٧٨ ب .
(٣) تفسير مقاتل ٧٨ ب .
(٤) تفسير مقاتل ٧٩ أ .
(٥) ذكره الماوردي عن الكلبي في النكت والعيون ٤/ ٣١١ .

والوجه في اللغة : ما يُتوجه إليه ، وعملُ الإنسان ودينُه مما يَتوجه إليه الإنسانُ لتسديده وإقامته ، وذكرنا ذلك عند قوله : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة :١١٢][(١)] .

وقوله : ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ معناه على التقديم والتأخير ؛ أي حنيفاً للدين ؛ أي مائلاً إلى الطاعة ، مستقيماً عليها لا ترجع عنها .

قال أبو إسحاق : «والحنيف الذي يميل إلى الشيء فلا يرجع عنه»[(٢)] .

وقوله : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ . قال عكرمة ومجاهد : «الإسلام» ، وهو قول الحسن[(٣)] .

وقال مقاتل : «﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ الملة ، وهي الإسلام والتوحيد الذي خلقهم عليه يوم أخذ الميثاق حين قال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف :١٧٢] ، فأقروا له بالربوبية والمعرفة»[(٤)] ، ونحو هذا قال ابن زيد[(٥)] ، واختاره الزَّجَّاج ، فذكره[(٦)] ،

---

(١) قال الواحدي في تفسير هذه الآية : «معنى قوله : ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ ؛ أي بذل وجهه له في السجود ، وعلى هذا أسلم بمعنى : سلم» ، وقال ابن الأنباري : «والمسلم على هذا هو المخلص لله العبادة» ، وقال قوم من أهل المعاني : «﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ ؛ أي أسلم نفسه وجميع بدنه لأمر الله ، والعرب تستعمل الوجه وهم يريدون نفس الشيء إلَّا أنهم يذكرونه باللفظ الأشرف كما قال : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص :٨٨]» ، وقال جماعة : «الوجه قد يقع صلة في الكلام ، فقوله : ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ ؛ أي انقاد هو لله ، ومثله : ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران :٢٠]» .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٤ ، وفيه : «كالحَنَف في الرِّجل ، وهو ميلها إلى خارجها خِلقة ، لا يملك الأحنف أن يَرد حَنفه» .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٠ عن مجاهد من طريق الحسن ، وأخرجه كذلك عن عكرمة ٢١/ ٤١ .

(٤) تفسير مقاتل ٧٩ أ ، ونحوه قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ٣٤١ ، ولفظه : «أي : خلقة الله التي خلق الناس عليها ؛ وهي أنه فطرهم جميعاً على أن يعلموا أن لهم خالقاً ومدبراً» .

(٥) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٠ .

(٦) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٤ . قال ابن كثير ٦/ ٣١٤ : «فإن الله تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره . . . . وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية» .

هذا قول المفسرين في هذه الآية ، ويشكل هذا بأن يقال : الفطرة ابتداء الخلق ، ولو كان الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم على ملة الإسلام والتوحيد ما أشرك أحد ولا كفر أحد مع قيام الدليل بأن الله خلق أقواماً للنار(١) ، وهم لم يخلقوا على الإسلام والتوحيد وهو قوله : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ الآية [الأعراف :١٧٩] . والخبر قد ورد بتفصيل الفريقين يوم أخذ الميثاق حين أخرج الله تعالى من صُلب آدم ذريته ، بعضها سود وبعضها بيض ، فقال : هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار(٢) .

---

(١) لعل الواحدي يشير بذلك إلى حديث أم المؤمنين عائشة ـرضي الله عنهاـ قالت : دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة ؛ لم يعمل السوء ، ولم يدركه ، قال : «أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» ، أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٥٠ في القدر ، رقم ٢٦٦٢ .

(٢) أخذ الميثاق على ذرية آدم ـعليه السلامـ ثابت في حديث أنس ـرضي الله عنهـ عن النبي ﷺ : «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به ؟ قال : نعم ، قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صُلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلّا الشرك» . متفق عليه ، انظر : البخاري ، كتاب : الأنبياء ، رقم ٣٣٣٤ ، فتح الباري ٦/ ٣٦٣ ، ومسلم ٤/ ٢١٦٠ ، وكتاب صفات المنافقين ، رقم ٢٨٠٥ .

ومن ذلك أيضاً حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، قال : «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم فأخرج من صُلبه ذريةً ذراها فنثرهم نثراً بين يديه كالذر ، ثم كلمهم فقال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ . أخرجه الحاكم ١/ ٨٠ ، كتاب : الإيمان ، رقم ٧٥ ، وقال : «حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه» . وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه من الطريق نفسه ابن أبي عاصم في كتاب : السُّنة ، رقم ٨٩ ، ورجَّح ابن كثير ٣/ ٥٠٢ وقف هذا الحديث على ابن عباس ، وحسَّن رفعه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤/ ١٥٨ ، رقم ١٦٢٣ ؛ نظراً إلى وروده في تفسير القرآن فيأخذ حكم الرفع ، ولوروده من طرق أخرى مرفوعاً ، وإن كان فيها ضعفٌ .

والأول غير مسلم ؛ إذ إن الروايات الإسرائيلية في التفسير قد تصح إسناداً إلى بعض الصحابة ، ومصدرها الأخذ عن بني إسرائيل ؛ فهل يُجزم بأخذها حكم المرفوع ؟ والله أعلم . هذا ما يتعلق بأصل أخذ الميثاق وثبوته ، أمَّا ما ذكره الواحدي من تفصيلهم إلى فريقين (سود ، وبيض) ، فقد ورد ذكر ذلك في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال عبدالله بن الإمام أحمد في المسند ١٠/ ٤١٧ ، رقم ٢٧٥٥٨ : =

وقال رسول الله ﷺ في الغلام الذي قتله الخضر : «طبعه الله يوم طبعه كافراً»[١] .

وبيان هذا الإشكال أن يقال : المراد بالناس هاهنا المؤمنون الذين فطرهم الله على الإسلام يوم أخذ الميثاق ؛ لأن المشرك لم يفطر على الإسلام ، فلفظ الناس عام والمراد منه الخصوص . هذا وجه قول المفسرين في هذه الآية ، وهو اختيار أبي الهيثم ، قال في هذه الآية : «هذه فطرة فُطر عليها المؤمن»[٢] .

= «حدثني أبي ثنا هيثم ، وسمعته أنا منه ، قال ثنا أبو الربيع عن يونس عن أبي إدريس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، قال : «خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذَّر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحَمَم ، فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في كفه اليسرى إلى النار ولا أبالي» ، وقد وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة ، رقم ٤٩ .

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٥٠ ، كتاب : القدر ، رقم ٢٦٦١ ، ولفظه : « إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» ، وأخرجه الترمذي ٥/ ٢٩٢ ، كتاب : تفسير القرآن ، رقم ٣١٥٠ .

(٢) ذكره عن أبي الهيثم الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٢٦ . وما ذهب إليه الواحدي واختاره أبو الهيثم في دفع الإشكال في الجمع بين الآية والحديث غير وجيه ، والصواب أن لفظ (الناس) في قوله تعالى : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ باق على عمومه لم يدخله التخصيص ، يشهد لذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف :١٧٢] ، فلم يُستثنَ من الذرية أحد ، وعليه فحديث : «كل مولود يولد على الفطرة» يدل على أن المولود وُلد على الفطرة سليماً ، ووُلد على أن هذه الفطرة السليمة يُغيِّرها الأبوان كما قدَّر الله تعالى ذلك وكتبه ، وقد مثَّل النبي ﷺ ذلك بقوله في آخر الحديث : «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ، فبيَّن أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدعها الناس ، وذلك بقضاء الله وقدره ، فكذلك المولود يولد على الفطرة سليماً ثم يفسده أبواه ، وذلك أيضاً بقضاء الله وقدره . انظر : درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٦١ .

أمَّا حديث الغلام الذي قتله الخضر فإن قول النبي ﷺ فيه : «طُبع يوم طبع كافراً » معناه : طُبع في الكتاب ؛ أي قُدِّر وقُضي لا أنه كان كفره موجوداً قبل أن يولد فهو مولود على الفطرة السليمة ، وعلى أنه بعد ذلك يتغير فيكفر ، كما طُبع كتابه يوم طُبع . ومَن ظن أن المراد به الطبع على قلبه ، وهو الطبع المذكور على قلوب الكفار ، فهو غالط ؛ فإن ذلك لا يُقال فيه : طُبع يوم طُبع ؛ إذ كان الطبع على قلبه إنما يوجد بعد كفره . وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ في ما يروي عن ربه تعالى أنه قال : «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، =

وذهب إسحاق[١] في هذه الآية ، وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث[٢] ، مذهباً حسناً ؛ وهو أنه قال : الفطرة : الخلقة التي خلقهم عليها ، إمَّا الجنة وإمَّا النار ، حين أخرج من صُلب آدم كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال : هؤلاء في الجنة وهؤلاء للنار ، فيقول : كل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه أو ينصرانه ، يقول : بالأبوين يتبين لكم ما تحتاجون إليه في أحكامكم من المواريث وغيرها ، يقول : إذا كان الأبوان مؤمنين فاحكموا لولدهما بحكم الإيمان ، وإن كانا كافرين فاحكموا لولدهما بحكم الكفر ، وأمَّا خلقته التي خُلق عليها فلا علم لكم بذلك ، وهو قوله

= وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» . وهذا صريح في أنه خلقهم على الحنيفية وأن الشياطين اجتالتهم بعد ذلك . وكذلك في حديث الأسود بن سَرِيع الذي رواه أحمد وغيره ، قال : بعث النبي ﷺ سرية ، فأفضى بهم القتل إلى الذرية ، فقال لهم النبي ﷺ : «ما حملكم على قتل الذرية ؟» قالوا : يا رسول الله ، أليسوا أولاد المشركين ؟ قال : «أو ليس خياركم أولاد المشركين» ، ثم قام النبي ﷺ ، خطيباً ، فقال : «ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرب عنه لسانه» ، فخطبته لهم بهذا الحديث عقب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين ، وقوله لهم : «أو ليس خياركم أولاد المشركين» ، يبيِّن أنه أراد أنهم وُلِدوا غير كفار ثم الكفر طرأ بعد ذلك ، ولو كان أراد أن المولود حين يولد يكون إمَّا كافراً وإمَّا مسلماً على ما سبق له القدر لم يكن في ما ذكره حجة على ما قصده ﷺ من نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين . انظر : درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٦٢ .

وحديث الأسود بن سَرِيع أخرجه الإمام أحمد ٢٤/ ٣٥٤ ، رقم ١٥٥٨٨ (طبعة الرسالة) ، وقال محققو المسند : «رجاله ثقات رجال الشيخين» ، إلا أن الحسن البصري لم يسمع من الأسود بن سَرِيع . وأخرج الحديث الحاكم ٢/ ١٣٣ ، رقم ٢٥٦٦ ، وقال : «حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه» ، وقال الذهبي : «تابعه يونس عن الحسن حدثنا الأسود بن سريع بهذا على شرط البخاري ومسلم» ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٣٠ ، قال : «قال الشافعي في رواية أبي عبدالرحمن عنه : هي الفطرة التي فطر الله عليها الخلق فجعلهم ما لم يفصحوا بالقول لا حكم لهم في أنفسهم إنما الحكم لهم بآبائهم» .

(١) إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، صرَّح بذلك الأزهري في تهذيب اللغة (فطر) ١٣/ ٣٢٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة . انظر : البخاري ، كتاب : الجنائز ، رقم ١٣٥٩ ، فتح الباري ٣/ ٢١٩ ، ومسلم ٤/ ٢٠٤٧ ، كتاب : القدر ، رقم ٢٦٥٨ .

تعالى : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ؛ أي من الشقاوة والسعادة . والدليل على هذا قوله : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي لا تبديل لما خلقهم له من جنة أو نار[١] .

وقال الأزهري : «والقول قول أبي إسحاق[٢] في تفسير الآية ، ومعنى الحديث[٣] ، وعلى هذا القول انتصب : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ على المصدر» ، وهو قول الأخفش ، قال : «كأنه قال : فَطَرَ الله تلك فِطرَةً»[٤] ، ونحو ذلك قال الفرَّاء[٥] .

معنى الآية : إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿حَنِيفًا﴾ ، ثم أخبر -عز وجل- أنه خلق الخلق على ما أراد من شقاوة وسعادة ، ولا تبديل لذلك . وفيه إشارة إلى أن الكفار الذين سبق ذكرهم خُلقوا للنار ، وأن النبي ﷺ والمؤمنين خلقوا للجنة ؛ لأن

---

(١) ذكر الأزهري قول إسحاق في تهذيب اللغة (فطر) ١٣/ ٣٢٩ .

(٢) هكذا في النسختين : (أبي إسحاق) ، والصواب : (إسحاق) ، كما في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٢٩ .

(٣) الصواب القول الأول الذي عليه المفسرون من الصحابة والتابعين ؛ وهو أن الفطرة المراد بها الإسلام ، وقوله : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي لدين الله . قال ابن عبدالبر : «وقال آخرون : الفطرة هاهنا : الإسلام ؛ قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف أهل التأويل ، وقد أجمعوا في تأويل قوله عز وجل : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على أن قالوا : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ دين الله الإسلام ، واحتجوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث : اقرأوا إن شئتم : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ، وذكروا عن عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قول الله عز وجل : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ، قالوا : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ دين الله الإسلام . ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قالوا لدين الله» . نقله عنه شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣٦٧ .
ويدل على ذلك ما أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤١ عن ابن عباس أنه سُئل عن إخصاء البهائم فكرهه ، وقال : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ، وعن عكرمة ومجاهد أيضاً . قال شيخ الإسلام : «لا منافاة بينهما كما قال تعالى : ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء :١١٩] ، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقه ، والخِصاءُ وقطع الأُذن أيضاً تغيير لخلقه ، ولهذا شبه النبي ﷺ ، أحدهما بالآخر في قوله : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تُنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ، فأولئك يغيرون الدين ، وهؤلاء يغيرون الصورة بالجَدْع والخِصاء ، هذا تغيير لما خُلقت عليه نفسه ، وهذا تغيير ما خُلق عليه بدنه» .

(٤) معاني القرآن ٢/ ٦٥٧ .

(٥) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٤ ، ولفظه : «يريد : دينَ الله ، منصوب على الفعل» .

قولـه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ خطـاب له وللمؤمنـين ، يدلُّ عليه قولـه بعد هذا : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ بلفظ الجمع ، وإن قلنا : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ يعني دين الله التوحيد ، على ما ذكر المفسرون ، فانتصابها يكون بالإغراء ، وهو قـول الزَّجَّاج ، وقال : «﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بمعنى : اتبع فطرة الله ؛ لأن معنى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ اتبع الدين القيم ، اتبع فطرة الله» .

قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ : قد ذكرنا معناه ؛ لا تبديل لما خلقهم له . وقال مجاهد وإبراهيم : «الدين : الإسلام ، و﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله»[1] ، وعلى هذا المراد بلفظ النفي : النهي ؛ أي لا تبدلوا دين الله الذي هو التوحيد بالشرك والكفر .

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ . قـال مقاتل : «يعني التوحيد هو الدين المسـتقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتوحيد الله»[2] .

٣١. قولـه تعالى : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال الأخفـش : «نصبه على الحال ؛ لأنه حين قال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ قد أمرَه ، وأمرَ قومه حتى كأنه قال : فأقيموا وجوهكم منيبين»[3] ، وقال الـمُبرِّد : «لـمَّـا قال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ كانت لـه ولأمته قاطبة ؛ وهـذا أجـودُ كلام إذا كان واحداً حاضراً أن تأمـره بما يخصه ، وتعم مَن وراءه مَن يأمـره[4] كقولهم : يا زيد اتقِ

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٣ عن قتادة ، وقال : «وقال معمر : كان الحسن يقول : فطرة الله الإسلام» ، وأخرجـه ابن جريـر ٢١/ ٤١ عن مجاهـد ، وعكرمة ، وقتادة ، وسـعيد بن جبـير ، والضحاك ، وابن زيد ، وإبراهيم النخعي ، وصحَّح إسـناد ابن جرير إلى مجاهد شـيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعـارض العقل والنقل ٨/ ٣٧٤ ، وبوَّب البخاري في صحيحه ، فقال : باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ : لدين الله . انظر : فتح الباري ٨/ ٥١٢ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٩ أ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٧

(٤) هكذا في النسـختين ، ولعل الصواب : (وتعم من وراءه ممن يأتمـر بأمره) ، ويوضح هذا المثال الذي ذكره بعد ذلك .

عمراً ، واحذروا أن تظلموه ، إذا كان زيد رئيس القوم ؛ هم مأمورون بما أُمر به زيدٌ» ، ونحو هذا قال الفرَّاء ، وصاحب النظم[١] .

وقال الزَّجَّاج : «زعم جميع النحويين أن معنى هذا : فأقيموا وجوهكم منيبين ؛ لأن مخاطبة النبي -عليه السلام- تدخل معه فيها : الأمة ، والدليل على ذلك قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق :١] ، قال : ومعناه : راجعين إلى كل ما أمر الله به ، مع التقوى وأداء الفرائض[٢] ، وهو قوله : ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾» .

ثم أخبر أنه لا ينفع ذلك إلَّا بالإخلاص في التوحيد ، فقال : ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

٣٢. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾[٣] ذكرنا تفسيره في آخر سورة الأنعام[٤] . وهذه الآية متصلة بالأُولى ؛ لأنها من نعت المشركين . قال الفرَّاء : «وإن شئت استأنفت قولَه تعالى : ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾»[٥] .

---

(١) قال الفرَّاء في إعراب ﴿مُنِيبِينَ﴾ : «منصوبة على الفعل ، وإن شئت على القطع ، فأقم وجهك ومَن معك منيبين مقبلين إليه» . انظر : معاني القرآن ٢/ ٣٢٥ .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٥ .

(٣) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٥ .

(٤) قال الواحدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام :١٥٩] : «قال ابن عباس في رواية عطاء : يريد : المشركين بعضهم يعبدون الملائكة يزعمون أنهم بنات الله ، وبعضهم يعبدالأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس :١٨] فهذا معنى : ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ ؛ أي فرقاً وأحزاباً في الضلالة ؛ فتفريقهم دينهم أنهم لم يجتمعوا في دينهم الذي هو شرك على شيء واحد» .

(٥) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٥ ، وتمامه : «كأنك قلت : الذين تفرقوا وتشايعوا كل حزب بما في يده فرح» .

قال مقاتل : «كل أهل ملة[١] بما عندهم من الدِّين راضون به»[٢] .

وقال الزَّجَّاج : «كل حزب من هذه الجماعة الذين فرَّقوا دينهم فرح ؛ يظن أنه هو المهتدي»[٣] ، وهذا مذكور في سورة المؤمنين[٤] .

٣٣. قوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ . قال مقاتل : «يعني كفار مكة ، الضر يعني القحط والسَّنة . ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه»[٥] . قال أبو إسحاق : «أي لا يلتجئون في شدائدهم إلى مَنْ عبدوه مع الله عز وجل ، إنما يرجعون في دعائهم إليه وحده»[٦] .

وقوله : ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ . قال مقاتل : «إذا أعطاهم من عنده ، يعني المطر . ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يقول : تركوا توحيد ربهم في الرخاء ، وقد وحَّدوه في الضراء»[٧] .

---

(١) تفسير مقاتل ٧٩ أ . وفي النسختين : مكة بدل ملة ، وهو تصحيف .

(٢) تفسير مقاتل ٧٩ أ .

(٣) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٦ .

(٤) عند قوله تعالى : ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ، وقد أحال الواحدي في تفسيرها على سورة الأنبياء ؛ حيث قال : «والكلام في هذا قد سبق في نظيرتها في سورة الأنبياء» . انظر : البسيط ٢/ ٦١٩ ، تحقيق : المديميغ ، وقال في تفسير قول الله تعالى : ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء :٩٣] : «قال ابن عباس : يريد المشركين اتخذوا من دونه آلهة» ، هذا كلامه في رواية عطاء ، والصحيح أن هذا إخبار عن جميع مخالفي شريعة محمد ﷺ ، يقول : «اختلفوا في الدين فصاروا فيه فرقاً وأحزاباً . ويجوز أن يكون هذا الاختلاف راجعاً إلى اختلاف أهل كل ملة كاختلاف اليهود في ما بينهم ، واختلاف النصارى ؛ وهذا هو الظاهر ، ويجوز أن يرجع إلى مخالفتهم دين الحق» . انظر : البسيط ١/ ١٨٧ ، تحقيق : المديميغ .

(٥) تفسير مقاتل ٧٩ أ .

(٦) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٦ .

(٧) تفسير مقاتل ٧٩ أ .

٣٤. ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ : هذه الآية مُفسَّرة في آخر سورة العنكبوت[١] .

وقوله : ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ . قال أبو إسحاق : «هذا خطاب بعد الإخبار لـمَّـا قال : ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ كان خبراً عـن غائب ، وكأن المعنى : فتمتعوا أيهـا الفاعلون لهذا ، وليـس هذا بأمر لازم ، بل هو أمر على جهة الوعيـد ، يدل عليه قوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني حالكم في الآخرة»[٢] .

٣٥. قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ . قال ابن عباس : «حجة»[٣] .

قال قتادة ومقاتـل : «كتاباً مـن السـماء ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا﴾ يقولون ، يعني من الـشرك[٤] ، يعني يأمرهم به ، ونعذرهم على ذلك[٥] ، وهذا اسـتفهام معناه الإنكار ؛ أي ليس الأمر على هذا» .

٣٦. ثم ذكر بطرهم عند النعمة ، وبأسـهم عند[٦] الشـدة بقوله : ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ الآية . وهذا خلاف وصف المؤمن ؛ فإنه يشكر عند النعمة ، ويرجو ربه عند الشدة ، ويرغب إليه في كشفها .

---

(١) عند قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت :٦٦] .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٦ . قال الأخفش : «كأنه قال : فقد تمتعوا فسوف يعلمون» .

(٣) ذكره الثعلبي ٨/ ١٦٩ أ عن ابن عباس والضحاك .

(٤) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٤ عن قتادة ، وذكره مقاتل في تفسـيره ٧٩ أ ، والثعلبي في تفسيره ٨/ ١٦٩ أ عن قتادة والربيع .

(٥) تفسير الثعلبي ٨/ ١٦٩ أ ، واقتصر عليه الفرَّاء ، ولم ينسبه في معاني القرآن ٢/ ٣٢٥ .

(٦) (عند) ساقطة من النسختين ، وزدتها لاستقامة الكلام .

قوله تعالى : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ : يعني شدة وبلاء . ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ أي بما عملوا من السيئات . ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ : ﴿إِذَا﴾ جواب الشرط ، وهو مما يجاب به الشرط ، قوله : ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ في موضع : قنطوا[١] .

٣٧. قال مقاتل : «ثم وعظهم فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ﴾» الآية[٢] .

٣٨. قوله : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ؛ أي من الصلة والبر[٣] . قال مقاتل : «حقُّ القرابة : الصلة»[٤] .

وقال قتادة : «إذا كان لك ذو قرابة فلم تصله بمالك ، ولم تمشِ إليه برجلك فهو قطيعة»[٥] .

وقال أبو إسحاق : «وفرائض المواريث كأنها قد نَسختْ هذا ، أعني : حق القرابة ، وجائز أن تكون القرابة حق لازم في البر»[٦] .

---

(١) ذكر سيبويه الإعراب والمعنى في الكتاب ٣/ ٦٣ ، وذكره المُبرِّد في المقتضب ٢/ ٥٨ ، وقال في ٣/ ١٧٨ : «فأمَّا (إذا) التي تقع للمفاجأة فهي التي تسد مسد الخبر ، والاسم بعدها مبتدأ ، كقولك : جئتك فإذا زيد ، وكلمتك فإذا أخوك ، وتأويل هذا : جئت ففاجأني زيد ، وكلمتك ففاجأني أخوك ، وهذه تغني عن الفاء ، وتكون جواباً للجزاء ، نحو : إن تأتني إذاً أنا أفرح ، على حد قولك : فأنا أفرح ، قال الله عز وجل : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ، فقوله : ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ في موضع : يقنطوا» ، وذكره أيضاً الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٧ ، وأبو علي في الإيضاح العضدي ١/ ٣٣٠ ، وابن جني في سر صناعة الإعراب ١/ ٢٥٤ ، ٢٦١ .

(٢) تفسير مقاتل ٧٩ ب .

(٣) تفسير ابن جرير ٢١/ ٤٥ .

(٤) تفسير مقاتل ٧٩ ب .

(٥) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٣ .

(٦) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٧ . والصحيح أن الآية لا نسخ فيها ، فحق ذوي القربى ثابت بالإحسان إليهم بالكلام الحسن ، والقول المعروف ، ووصلهم بالنفقة إذا كانوا محتاجين ، ووقع الخلاف بين أهل التفسير هل الأمر في الآية للوجوب أم للندب على قولين ، فقال القرطبي ١٤/ ٣٥ : «واختلف في هذه الآية ، فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث ، وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم في البر على =

وقوله : ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ . قال ابن عباس : «أطعم الطواف»[١] .

وقال مقاتل : «حقه أن يُتصدق عليه»[٢] .

وقوله : ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني حق الضيف عليك أن تحسن إليه[٣] .

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ . يقول : «إعطاء الحق أفضل من الإمساك ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾[٤] يطيعون بما يعلمون ثوابه ، ثم نعتهم فقال : ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[٥] .

= كل حال ، وهو الصحيح» ، وقال مجاهد وقتادة : «صلة الرحم فرض من الله ـعز وجلـ ، حتى قال مجاهد : «لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة» . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبي ﷺ ؛ والأول أصح ؛ فإن حقهم مبيَّن في كتاب الله ـعز وجلـ في قوله : ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال :٤١] ، وقيل : إن الأمر بإيتاء ذي القربى على جهة الندب . قال الحسن : «﴿حَقَّهُۥ﴾ المواساة في اليسر ، وقول ميسور في العسر» ، وحكى الشوكاني قول القرطبي مقرراً له . انظر : فتح القدير ٤/ ٢١٩ .

قال أبو المظفر السمعاني ٤/ ٢١٥ : «أكثر المفسرين على أن المراد من إيتاء ذي القربى هاهنا صلة الرحم بالعطية والهدية» ، ثم ذكر قول قتادة ، وقال القاسمي : «﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ؛ أي من البر والصلة» . واستدل به أبو حنيفة على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب ؛ لأن ﴿فَـَٔاتِ﴾ أمر للوجوب . والظاهر من الحق بقرينة ما قبله أنه مالي ، وهو استدلال متين . انظر : تفسير القاسمي ١٣/ ١٨١ .

قال ابن كثير في تفسيره ٦/ ٣١٨ : «يقول تعالى آمراً بإعطاء ذي القربى حقه ؛ أي من البر والصلة» ، وهو قول البغوي ٦/ ٢٧٢ ، وقال أبو حيان ٧/ ١٦٩ بعد ذكر رأي الحنفية : «الظاهر أن الحق ليس الزكاة وإنما يصير حقاً بجهة الإحسان والمساواة» ، وقال ابن عطية ١١/ ٤٥٩ : «هذا على جهة الندب» ، وهذا محمول على إذا لم تكن قرابته محتاجة ، فإذا كانت قرابته محتاجة فقيرة وهو غني مقتدر فيجب عليه أن يصل قرابته بماله ، والله أعلم .

(١) ذكره عنه القرطبي ١٤/ ٣٥ بلفظ : «أطعم السائل الطواف» .

(٢) تفسير مقاتل ٧٩ ب .

(٣) تفسير مقاتل ٧٩ ب ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٧ .

(٤) تفسير مقاتل ٧٩ ب .

(٥) تفسير مقاتل ٧٩ ب ، من قوله : «ثم نعتهم» .

٣٩. قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ الآية . روى قتادة عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : «هي هدية الرجل يهدي الشيء يريد أن يثاب أفضل منه ، فذلك الذي لا يربو عند الله ، لا يؤجر فيه صاحبه ، ولا إثم عليه فيه»(١) . وعن مجاهد قال : «هي الهدايا»(٢) .

وروى ابن أبي روَّاد عنه ، قال : «هو الربا الحلال ؛ يهدي الرجل الشيء ليُهدَى له أفضل منه ، فهو حلال ليس فيه إثم ولا أجر»(٣) . وقوله : ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر :٦] : نزلت في النبي ﷺ خاصة ، نُهي أن يُهدِي هدية فيُهدَى له أفضل منها ، وحَرُم ذلك عليه خاصة(٤) .

وقال السُّدِّي : «الربا في هذا الموضع : الهدية يهديها الرجل لأخيه ؛ طلبَ المكافأة ، فإن ذلك لا يربو عند الله ، ولا يؤجر عليه صاحبه» ، وقال سعيد بن جبير : «هذا في الرجل يُعطِي ليثابَ عليه»(٥) ، هذا قول المفسرين في هذه الآية .

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٣ ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٨٤ عن ابن عباس من طريق قتادة ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٦ من طريق محمد بن سعد بإسناده عن ابن عباس ، وهو قول مقاتل ٧٩ ب .

(٢) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٦ .

(٣) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٤ عن الضحاك بن مزاحم من طريق عبدالعزيز بن أبي رواد .
ـ عبدالعزيز بن أبي رواد ، شيخ الحرم ، واسم أبيه : ميمون ، حدَّث عن سالم بن عبدالله ، والضحاك بن مزاحم ، وعكرمة ، ونافع ، وغيرهم ، وحدَّث عنه يحيى القطان ، وعبدالرزاق ، وابن المبارك ، وغيرهم ، صدوق عابد ، وربما وهم ، ورمي بالإرجاء ، توفي سنة ١٥٩هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٤ ، وتقريب التهذيب ٦١٢ .

(٤) ذكره ابن جرير في تفسيره ٢١/ ٤٦ ، ولم ينسبه ، وقد كُتب في تفسير ابن جرير بعد قول الضحاك مفصولاً عنه ، فلعله من قول الضحاك ، وفصْله عنه خطأٌ ، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٩٥ من كلام الضحاك ، وعزاه لابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وذكره عن الضحاك الثعلبي ٨/ ١٦٩ أ . وقد ذكر ابن كثير ٨/ ٢٦٤ في آية المدثر أربعة أقوال ، استظهر منها القول الذي اقتصر عليه الواحدي .

(٥) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٦ .

وشرحها أهل المعاني، فقال أبو إسحاق: «يعني به: دفعُ الإنسان الشيء ليعوض ما هو أكثر منه، فذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه؛ لأن الذي يهبه يستدعي به ما هو أكثر منه»[1].

وقال أبو علي الفارسي: «﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ يحتمل تقديرين؛ يجوز أن تكون للجزاء[2]، ويجوز أن تكون موصولة؛ فإن قدَّرتها جزاء كانت في موضع نصب بـ: ﴿ءَاتَيْتُم﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في موضع جزم بأنه جواب للجزاء، ويقوِّي هذا الوجه قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، ألَا ترى أنه لو كان مبتدأً لعاد عليه ذكرٌ، وإن جعلتها موصولة كان موضع ﴿مَآ﴾ رفعاً بالابتداء، ﴿ءَاتَيْتُم﴾ صلة، والعائد إلى الموصول: الذكر المحذوف من ﴿ءَاتَيْتُم﴾[3]، وقوله: ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ في موضع رفع بأنه خبر الابتداء، والفاء دخلت في الخبر على حد ما دخلت في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]».

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٧ بمعناه.

(٢) أي: اسم شرط جازم.

(٣) يعني بالذكر المحذوف هنا: الضمير الواقع مفعولاً في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتُم﴾، والتقدير: الذي آتيتموه، وسِرُّ تسميته بالذكر المحذوف ـ في ما يظهر ـ أن المقدَّر هنا كالمذكور سواء بسواء.

وقوله : ﴿ءَاتَيْتُم﴾ : أكثر القُـرَّاء قرأ : ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بالمد[١] ،[٢] إلى قول : (من مد) كأنه قيل : ما جئتم من ربـاً ، ومجيئهم ذلك على وجه الإعطاء له كما قال[٣] : أتيت الخطأَ ، وأتيت الصوابَ ، وأتيت قبيحاً . قال الشاعر :

أتيتُ الذي يأتي السفيهُ لِغـرتـي إلى أنْ علا وَخْطٌ منَ الشيبِ مَفْرِقي

فإتيانه الذي يأتي السفيه إنما هو فعل منه له[٤] .

وقوله : ﴿مِّن رِّبًا﴾ على ضربين ؛ أحدهما : متوعد عليه محرم بقوله : ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [البقـرة :٢٧٨] ، والآخـر غير محرم ؛ وهو أن يُهدِي شـيئاً أو يهبه ، فيستثيب أكثر منه . وسُـمِّي بهذا المدفوع على وجه اجتلاب الزيادة : رباً لـمَّـا كان الغرض فيه الاسـتزادة على ما أَعطى ، فسُمِّي باسـم الزيادة ؛ لمكان الزيادة المقصودة في المكافأة .والربا هو الزيادة ، فبذلك سُمِّي المحرم رباً ؛ لزيادة ما يأخذ على ما دَفع[٥] .

---

(١) قرأ ابن كثير : ﴿ءَاتَيْتُم﴾ مقصـورة ، وقرأ الباقون ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بالمد ، في قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ ، وأمَّـا قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ : فلم يختلفوا في مدها . انظر : السـبعة في القراءات ٥٠٧ ، والحجة للقرَّاء السـبعة ٥/ ٤٤٦ ، وإعراب القراءات السـبع وعللهـا ٢/ ١٩٦ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٤ .

(٢) يوجد هنا سـقط في النسـختين ، ولا يتم المعنى من دونه ، وتمام الكلام كما هو عند أبي علي في الحجة ٥/ ٤٤٦ : «وأمَّا قصر ابن كثير فإنه يؤول في المعنى إلى قول من مد . . .» .

(٣) في الحجة ٥/ ٤٤٦ : «كما تقول» .

(٤) ذكره أبو علي الفارسي في الحجة للقرَّاء السـبعة ٥/ ٤٤٦ ، وأنشـد البيت كاملاً ، ولم ينسـبه . الغِرُّ : الصغير الذي لم يجرب الأمور ، يقال : كان ذلك في غرارتي وحداثتي ، والمفرق : وسط الرأس . انظر : تهذيب اللغة (غرر) ١٦/ ٧١ ، ولسان العرب (فرق) ١٠/ ٣٠١ .

(٥) الحجة للقرَّاء السـبعة ٥/ ٤٤٧ بتصرف ، ومعاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٧ بمعناه ، وهذا من الاستطراد لبيان معنى الآية ؛ لأن الربا المحرم لا يدخل في هذه الآية ، وليس هو المراد منها ، بدليل ما نقله الواحدي عن السلف في ذلك ، فلم يُنقل عنهم ـ والله أعلم ـ أن الربا المحرم معني بهذه الآية ؛ إذ لو أريد ذلك لكان في القطع بتحريمه في هذه الآية نظر ؛ فالآية ليس فيها تحريمٌ ، بل فيها إخبار عن فقد الأجر والثواب لـمَن فعل هذا الفعل ، وهذا كما سبق في قول ابن عباس : «ليس فيه أجر ولا وزر» ، والله أعلم .

وقوله : ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ : فاعل (يَرْبُوَ) الربا المذكور في قوله : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ ، وقُدِّر المضاف فحذفه ، كأنه : في اجتلاب أموال الناس ، أو اجتذابه ، ونحو ذلك[١] .

وقرأ نافع : (لِتُربوا) بالتاء وضمها[٢] ؛ أي لتصيروا ذوي زيادة من أموال الناس بما آتيتم ؛ أي تستدعونها وتجلبونها ، وكأنه من : أربى إذا صار ذا زيادة ، مثل : أقطف وأجدب[٣] .

وقوله : ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي لأنكم إنما قصدتم إلى زيادة العِوض ، ولم تقصدوا وجه البر والقربة ، ولو قصدتم به وجه الله لكان كقوله : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ . وفي (مَا) هذه الوجهان ذكرناهما في (مَا) في أول الآية ؛ فإن جعلتها الموصولة فهي في موضع رفع ، و(ءَاتَيْتُم) صلة ، والراجع إلى الموصول محذوف ، على تقدير : آتيتموه .

---

(١) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٧ ، ولفظه : «وقدر المضاف وحذف كأنه : اجتلاب أموال الناس ، واجتذابها ، ونحو ذلك» .

(٢) قرأ نافع : ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ بضم التاء ، وسكون الواو ، وقرأ الباقون : ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ بالياء ، وفتح الواو . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٧ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٧ ، وإعراب القراءات السبع وعللها ٢/ ١٩٦ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٤ . وقد ضبط محقق كتاب الحجة قراءة نافع على هذا النحو : ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ ، وقال بعدها : «بالتاء ساكنة الواو» ، وهذا خطأ من وجهين ؛ الأول : قراءة نافع بالتاء مضمومة ، وليست مفتوحة كما ضبطها المحقق في ٤٤٨ ، الثاني : الواو في قراءة نافع ساكنة ، وليست مفتوحة ، مع أن المحقق قد أحال في الحاشية على كتاب السبعة .

(٣) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٨ ، وفيه : (أقطف) و(أجرب) بدل (أجدب) ، وكلاهما صحيح ، يعني صار ذا جدب ، أو صار ذا جرب . ورد في تهذيب اللغة (قطف) ١٦/ ٢٨٢ : «أقطف الرجل ؛ إذا كانت دابته قَطُوفاً ، والقِطاف مصدر القَطوف من الدواب ؛ وهو المقارب الخَطو ، البطيء» .

قال : (وَمَا ءَاتَيْتُـــم) ، ثم قال : (فَأُولَئِكَ) ، فانتقل من الخطاب إلى الغيبة[١] ، كما جاء في : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس :٢٢][٢] . والفاء دخلت على (فَأُولَئِكَ) لذكر الفعل في الصلة ، والجملة في موضع خبر المبتدأ الذي هو : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ﴾ ، ويقدَّر راجعاً محذوفـــاً ، التقدير : فأنتم المضعفون به ؛ أي ذوو الضعف بما آتيتم من زكاة ، فحذفت العائد على حد ما حذفته من قولك : السمن منوان بدرهم[٣] . هذا كله كلام أبي علي ذكره في مواضع متفرقة ، فرددت كلًّا إلى موضعه .

قال أبو إسحاق : «وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ؛ أي فأهلها يضاعف لهم الثواب ؛ يُعطون بالحسنة عشر أمثالها . وقيل ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ كما يقال رجل مقوٍ ؛ أي صاحب قوة ، وموسر ؛ أي صاحب يسار ، وكذلك : مُضعف ، ذو أضعاف من الحسنات»[٤] .

قال مقاتل : «ثم ذكر ما أصاب الناس من ترك التوحيد في قوله تعالى :

٤١ . ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ : يعنـــي قحـــط المطر ، وقلة النبات»[٥] .

قال أبو علي : «الفســـاد جاء في القرآن على ضربين ؛ فساد معاقب عليه

---

(١) المسائل الحلبيات ٨٥ .

(٢) ذكر هذا ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ٢٨٩ .

(٣) ساق هذا المثال للتدليل على حذف العائد المجرور ، وتقديره : السمن منوان منه بدرهم ، فحذف منه لدلالة السياق عليه ، كما قدر في الآية : فأنتم المضعفون به ، والله أعلم . الـــمَنُّ : معيار قديم يكال به أو يوزن . انظر : لسان العرب (منن) ١٣/ ٤١٨ ، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٨٨ .

(٤) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٨ .

(٥) تفسير مقاتل ٧٩ ب .

وهو كثير[١] ، وفساد على غير ذلك بمعنى الجَدْب[٢] ، وهو المراد في هذه الآية ، وهذا كما قلنا في : الحسنة والسيئة ، وقد ذكرنا ذلك في قوله : ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف :٩٥]»[٣] .

وقوله : ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ . قال : «يعني حيث لا يجري نهر ، وهو لأهل العمود والبحر ، ونقصُ الثمار في الريف ، يعني القرى تجري[٤] فيها الأنهار»[٥] .

قال ابن عباس في رواية عكرمة : «أمَّا البحر فما كان من المدائن والقرى على شاطئ نهر ، وأمَّا البر فالبرية التي ليس عندها نهر»[٦] .

---

(١) مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة :١١ـ١٢] . وقد ورد الفساد بهذا المعنى في أكثر من خمسة وأربعين موضعاً في القرآن الكريم . انظر الآيات في : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (فسد) ٥١٨ .

(٢) من أمثلته قول الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة :٢٥١] ، وهو بهذا المعنى قليل لم أجده إلَّا في أربعة مواضع : [البقرة :٢٥١] ، و[الأنبياء :٢٢] ، و[المؤمنون :٧١] ، وآية الروم هذه ، والله أعلم .

(٣) قال الواحدي في تفسير هذه الآية : «قال أهل اللغة : السيئة كل ما يسوء صاحبه ، والحسنة ما يحسن عليه أثره» ، ثم ذكر قول أبي علي الذي ذكره هنا ، ثم قال : «والمعنى : أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة ، وبالرخاء تارة» .

(٤) (تجري) مكررة مرتين في (ب) .

(٥) كتاب الشعر لأبي علي ٢/ ٤٥٧ بتصرف . قال مقاتل ٧٩ ب : «ثم أخبرهم أن قحط المطر في البر ونقص الثمار في الريف حيث تجري فيها الأنهار إنما أصابهم بترك التوحيد ، فقال سبحانه : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني قحط المطر ، وقلة النبات حيث لا تجري فيها الأنهار لأهل العمود ، ثم ظهر الفساد يعني قحط المطر ، ونقص الثمار في البحر يعني الريف ، يعني القرى التي تجري فيها الأنهار» . وقال الليث : «يقال لأهل الأخبية الذين لا ينزلون غيرها : هم أهل عَمُود ، وأهل عماد» . ذكره كتاب العين (عمد) ٢/ ٥٧ ، ونقله الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٥١ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٩٦ ، وعزاه لابن أبي حاتم .

وقال السُّـدِّي : «الفســاد : القحط ، والبر : كلُّ قرية من قرى العرب نائيةٍ عن البحر ، مثل : المدينة ومكة . [قال : والعرب تسمي الأمصار بحراً][١] ، وأمَّا البحر فكلُّ قريةٍ مثلُ : البصرة والكوفة والشام»[٢] .

وقال عكرمة : «أمَّــا إني لا أقول : بحركم هذا ، ولكــن كل قرية على ماء ، قال : والعرب تسمي الأمصار بحراً»[٣] .

وقال فضيل بن مرزوق : «قلت لعطية في قوله : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هذا البر ، فالبحر أي فساد فيه ؟ قال : يقال إذا قلَّ المطر قلَّ الغوص»[٤] ، يعني أن البحر إذا أمطر تفتح الأصداف أفواهها ، فما وقع فيها من ماء السماء فهو لؤلؤ[٥] ، وعلى هذا المراد بالبحر : بحر الماء لا القرى ، والقول هو الأول[٦] .

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من (أ) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٩٧ ، وعزاه لابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٩ .

(٤) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٩ .
فضيــل بن مرزوق الأغر ، الرَّقاشي الكوفي ، أبو عبدالرحمن ، صدوق يهم ، رمي بالتشــيع ، وحدَّث عن عدي بن ثابت ، وعطية العوفي ، وشــقيق بن عقبة ، وغيرهم ، وحــدَّث عنه وكيع ، وأبو نُعيم ، وعلي بن الجعد ، وغيرهم . روى له مســلم في المتابعات ، توفي سنة ١٦٠ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٤٢ ، وتقريب التهذيب ٧٨٦ .

(٥) ذكره الثعلبي ٨/ ١٦٩ ب عن ابن عباس .

(٦) يعني أن المــراد بالبحر القرى التي على شــاطئ البحر ، وهذا القول وإن كان لــه وجه ، لكن إجراء الآيــة على ظاهرها حيث لا يمنــع من ذلك شيء أولى . ولعل الذي حمــل الواحدي على ترجيح هذا القول تفسيره الفســاد في الآية بالجدب والقحط ، وهو غير متصور في البحر ، وسيأتي توضيح القول الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ؛ أي من المعاصي[١] ، يعني كفار مكة . ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ الله بالجوع في السنين السبع[٢] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ؛ أي جزاء .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ : لكي يرجعوا من الكفر إلى الإيمان[٣] . هذا الذي ذكرنا هو الصحيح في تفسير هذه الآية ، وذُكر في تفسيرها أقوالٌ لا تليق بالآية ، منها قول قتادة : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ ، فقال : «هو الشرك امتلأت الأرض ظلماً وضلالةً قبل أن يبعث الله نبيه»[٤] .

قال مجاهد : «قَتْلُ ابنِ آدم أخاه في البر ، وأَخْذُ المَلِكِ السفنَ غصباً في البحر»[٥] .

قال الحسن : «أفسدهما الله بذنوبهم في بر الأرض وبحرها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع مَنْ بعدهم»[٦] . وهذه الأقوال مرذولة فاسدة ليست تحسُن في تفسير هذه الآية[٧] .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٩٧ ، وعزاه لابن أبي حاتم .

(٢) المراد بذلك ما ورد في الحديث الصحيح في دعاء النبي ﷺ على أهل مكة بسنين كسني يوسف ـعليه السلامـ ، وقد سبق ذكره وتخريجه في تفسير الآية رقم : ٩٣ من سورة النمل .

(٣) تفسير مقاتل ٧٩ ب بنصه .

(٤) أخرجه عبدالرزاق ٢/ ١٠٤ ، وابن جرير ٢١/ ٤٩ .

(٥) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٩ .

(٦) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٩ ، ٥٠ ، وأخرج عن ابن زيد : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ، قال : «الذنوب» .

(٧) كان الأَوْلى بالواحدي أن يبيِّن ضعف هذه الأقوال من دون الحاجة إلى وصفها بهذا الوصف . فعلى القول الذي صححه الواحدي يكون المراد بالفساد : ما أصاب الناس من القحط والجدب ، وعلى القول الثاني الذي رده الواحدي المراد بالفساد : ظهور الشرك والمعاصي في كل مكان ، من البر والبحر ، وانتشار الظلم ، وحصول النقص في الخيرات ، والحروب ، والكوارث ، ونحو ذلك كله ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ؛ أي بذنوب الناس انتشر الشر والظلم والفسق والفجور في البر والبحر . وقد اقتصر على هذا القول ابن جرير ٢١/ ٥٠ ، قال : «فتأويل الكلام إذاً إذ كان الأمر كما =

٤٢. قال مقاتل: «ثم خوَّفهم، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية[1]. وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾: فأهلكوا بكفرهم. وإخباره عنهم بالشرك إخبار عن إهلاكهم، ودلَّ عليه قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾. ومعلوم أن عاقبتهم كان إلى الهلاك».

= وصفت: ظهرت معاصي الله في كل مكان، من بر وبحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما». وقد تأول ابن جرير هذا القول من أقوال قتادة، ومجاهد، والحسن، التي وصفها الواحدي بأنها أقوال مرذولة، والصواب أنها أقوال مناسبة لسياق الآية، ولظاهرها كما يدل عليه تمثيل مجاهد للفساد في البحر: بأخذ السفن غصباً، وهذا هو مقتضى الحكمة، والقول الذي اختاره الواحدي محمول على التمثيل للفساد بالجدب والقحط، لا على أنه هو المقصود وحده حتى يتأول البحر بالقرى المحيطة به، وينبني على القول الذي اختاره الواحدي أن الذنوب والمعاصي كلما زادت قل المطر وانتشر الجدب والقحط، وهذا غير مسلم؛ لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه الكريم أنه لا يمنع الناسَ الرزقَ بسبب كفرهم، بل قد يمدهم بالرزق والنعم استدراجاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وأخبر تعالى أنه لو يؤاخذ الناس بذنوبهم لهلكوا ولم يبق منهم أحداً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، حتى الدواب تهلك تبعاً لهلاك بني آدم، بسبب ذنوب بني آدم، ولا يُعترض على هذا بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ فالآية في زيادة الخير والرزق لمن حقق الإيمان والتقوى، بل إن من حكمة الله تضييق الرزق على الأنبياء وأتباعهم؛ تعظيماً لأجرهم في الآخرة كما لا يخفى، وخلاصة ذلك أن اعتراض الواحدي ورده لهذه الأقوال لم يبيِّن دليله عليه، مع أن القول الذي رده ظاهر جداً من سياق الآية، وعليه فيحمل الفساد على ما يظهر في البر والبحر من الكفر والظلم والطغيان، وما يلحق الناس بسبب ذلك من نقص المطر وحصول القحط والجدب، والعذاب بالزلازل، والخسف، والغرق، والحروب، والسلب، والنهب، والخوف، وغيره من أنواع الفساد الذي ينتشر بسبب ذنوب الناس من الشرك وغيره، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، والله تعالى أعلم.

(١) تفسير مقاتل ٨٠ أ.

٤٣. قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ . قال أبو إسحاق : «أقم قَصدك ، واجعل جهتَك اتباع الدين القيم»[١] . قال مقاتل : «وهو الإسلام المستقيم . ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني يوم القيامة لا يقدر أحد على ردِّ ذلك اليوم[٢] ؛ لأن الله قد قضى بمجيئه ، فإذا جاءكم لا مردَّ له» .

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ؛ أي يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار ، قاله مقاتل[٣] ، وهذا كقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ، وقد مرَّ[٤] . قال الفرَّاء : «﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون ؛ أي يتفرقون . تقول العرب : صدَعتُ غنمي صِدْعَتين ؛ أي فَرَقْتُها فِرقتين»[٥] .

٤٤. قوله : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ . قال ابن عباس : «يجازى بكفره» ، وقال مقاتل : «عليه إثم كفره»[٦] . ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ؛ أي يوطئون لأنفسهم منازلهم[٧] .

وقال الكلبي : «يفرشون»[٨] .

وقال مجاهد : «يسوون المضاجع في القبر[٩] . يقال : مهَّدت لنفسي خيراً ؛ أي هيأته ووطأته» .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٨ .
(٢) تفسير مقاتل ٨٠ أ .
(٣) تفسير مقاتل ٨٠ أ ، والزَّجَّاج ، ومعاني القرآن ٤/ ١٨٨ .
(٤) الآية رقم : ١٤ من هذه السورة .
(٥) معاني القرآن للفرَّاء ٢/ ٣٢٥ ، وليس فيه : «يتصدعون» .
(٦) تفسير مقاتل ٨٠ أ .
(٧) قال الزَّجَّاج ٤/ ١٨٨ : «أي : لأنفسهم يوطئون» .
(٨) تنوير المقباس ٣٤٢ .
(٩) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٥٢ .

٤٥. قوله : ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ : اللام متعلقة بقوله : ﴿يَمْهَدُونَ﴾ ؛ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله . ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ . قال ابن عباس : «ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم» .

٤٦. قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ . قال ابن عباس : «بالمطر»[١] . ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ . قال : «يريد الغيث والخَصْب» . قال صاحب النظم : «هو معطوف على تأويل : ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على نظم : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ ليبشركم وليذيقكم من رحمته ، ولتجري الفلك في البحر بتلك الرياح بأمره ، ولتبتغوا في البحر من فضله ، يعني الرزق بالتجارة» . قال مقاتل : «كل هذا بالرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة فتوحِّدونه» .

٤٧. ثم خوَّف كفار مكة ، وعزَّى نبيه ﷺ ، فقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[٢] ؛ أي بالدلالات الواضحات على صدقهم . وقال ابن عباس : «بالفرائض والحلال والحرام» .

وقال مقاتل : «أخبروهم بالعذاب أنه نازل بهم إن لم يؤمنوا»[٣] .

قوله تعالى : ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ : كفروا بآياتهم[٤] .

وقال الكلبي : «جرمهم هاهنا : الكفر»[٥] .

---

(١) تنوير المقباس ٣٤٢ ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٥٣ عن مجاهد .
(٢) تفسير مقاتل ٨٠ أ .
(٣) تفسير مقاتل ٨٠ أ .
(٤) الضمير يعود على البينات التي جاء بها الرسل ، كما يدل عليه سياق الآية .
(٥) تنوير المقباس ٣٤٢ ، وهو قول مقاتل ٨٠ أ .

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . قال الحسن : «نصر المؤمنين : إنجاؤهم مع الرسل من عذاب الأمم» ، وهو قول الكلبي ومقاتل[١] ، ومعنى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ واجباً ، يعني وجوباً هو أوجبه على نفسه من حيث أخبر به ، وإذا أخبر بشيء حق ذلك الشيء ، ووُجِد على ما أخبر به ، وقد أخبر أنه ينجي المؤمنين من عذاب المكذِّبين . ولا يجب على الله شيء ابتداءً بخلاف ما قالت القدرية . وفي هذا تبشير النبي ﷺ بالظفر في العاقبة ، والنصر على مَن كذَّبه .

٤٨. قال مقاتل : «ثم أخبر عن صُنعه ليعرفوا توحيده فقال : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[٢] يزعجه من حيث هو ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ الله ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾» . قال مقاتل : «إن شاء بسطه مسيرة يوم ، أو بعض يوم ، أو مسيرة أيام[٣] ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ ؛ أي قطعاً[٤] ، بعد أن بسطه الله يجعله قطعاً متفرقاً يسير بها الريح» . وتفسير الكِسْف قد ذكرناه في أواخر سورة بني إسرائيل[٥] .

---

(١) تنوير المقباس ٣٤٢ ، وتفسير مقاتل ٨٠ أ .

(٢) تفسير مقاتل ٨٠ أ .

(٣) تفسير مقاتل ٨٠ أ ، والمراد بذلك المطر النازل من السحاب تختلف كثرته وقلته ، من مسيرة يوم أو أيام ، وهذا مقصود مقاتل ؛ إذ قال : «أو مسيرة أيام يمطرون» . والظاهر من الآية بسطه في السماء قبل نزوله ، بدليل ما ذكر في الآية بعد ذلك من تقطيع السحاب ، ثم نزول المطر ، والله أعلم .

(٤) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٥٤ عن قتادة ، والزَّجَّاج في معاني القرآن ٤/ ١٨٩ ، ولم ينسبه .

(٥) عند قوله تعالى : ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء :٩٢] ، قال الواحدي : «قوله تعالى : ﴿كِسَفًا﴾ فيه وجهان من القراءة : جزم السين ، وفتحها» ، وقال أبو زيد : «يقال كسفت الثوب أكْسِفُه كَسْفاً ، إذا قطعته قِطَعاً» ، وقال الفرَّاء : «وسمعت أعرابياً يقول لبزاز : أعطني كِسْفَة ، يريد : قطعة كقولك : خِرْقَة . روى عمرو عن أبيه : يقال لِخِرَق القميص قبل أن يُؤَلَّفَ : الكِسَف ، واحدها كِسْفَة» .

وقوله : ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ مُفسَّر في سورة النور[١] . ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم[٢] .

٤٩ . ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ : اختلفوا في تفسير ﴿قَبْلِ﴾ ؛ فذكر أبو إسحاق وابن الأنباري فيه قولين ؛ أحدهما : أن الأُولى داخلة في الإنـزال ، والثانية على المطر . والمعنى : ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ﴾ إنزال المطر ، من قبل المطر ، فلمَّا دخلت الثانية على غير ما دخلت عليه الأُولى صلح الجمع بينهما ، كما تقول : أجيئك من قبل أن تجلس ، من قبل أن تبلغ إلى المجلس ، فلا تُنكر الإعادة إذا اختلف الشيئان . هذا كلام أبي بكر[٣] ، وهو قول قطرب[٤] .

القول الثاني : إن تكرير ﴿قَبْلِ﴾ إطناب بمعنى التوكيد[٥] . والمعنى : وإن كانوا من قبل إنزال المطر ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ . قال أبو إسحاق : «والقول ما قال[٦] ؛ لأن تنزيل المطر بمعنى المطر ؛ لأن المطر لا يكون إلَّا تنزيلاً ، كما أن الرياح لا تُعرف إلَّا

---

(١) عند قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور :٤٣] .

(٢) تفسير مقاتل ٨٠ ب .

(٣) المراد به ابن الأنباري ؛ ولم أقف على قوله .

(٤) نسبه إلى قطرب الزَّجَّاج ٤/ ١٨٩ ، والثعلبي ٨/ ١٧٠ أ ، وحكاه ابن جرير ٢١/ ٥٤ ، ولم ينسبه ؛ أي لمَّا اختلف المضاف إلى الضمير لفظاً صح تكراره ، والمعنى واحد ، فالأول من قبل إنزال المطر ، والثاني من قبل المطر ، والمطر لا يكون إلَّا تنزيلاً .

(٥) هذا قول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٨ ، واختاره ابن جرير ٢١/ ٥٤ .

(٦) هكذا في النسختين : (قال) ، والصواب : (ما قالوا) ، كما هو واضح من سياق الكلام عند الزَّجَّاج ؛ قال : «وقال الأخفش وغيره من البصريين : تكرير قبل على جهة التوكيد . والمعنى : وإن كانوا من قبل تنزيل المطر لمبلسين ، والقول كما قالوا ؛ لأن تنزيل المطر . . .» .

بمرورها[١] ، يعني أن قوله : ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ بمعنى : من قبل المطر عن الإنزال حتى يقال : إن قبل الأُولى للإنزال ، والثانية للمطر» ، كما قال قطرب[٢] .

وقوله : ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ ؛ أي آيسين قانطين من المطر ، قاله ابن عباس ومقاتل[٣] ، والتقدير : وما كانوا إلَّا مبلسين ، وقد تقدَّم لهذا نظائر .

٥٠. قوله تعالى : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي بعد إنزال المطر ، فانظر إلى حُسنِ تأثيره في الأرض . وتقرأ : (آثَارِ) على الجمع[٤] ؛ فمَن أفرد فلأنه مضاف إلى مفرد ، ومَن جمع جاز ؛ لأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ، كما قال : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم :٣٤] ، [النحل :١٨][٥] . قال مقاتل : «﴿ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني النبت ، وهو أثر المطر»[٦] . والمطر رحمة الله ونعمته على خلقه .

وقوله : ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ؛ أي كيف يجعلها تنبت بعد أن لم يكن فيها نبت .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٩ .

(٢) يمكن حمل الضمير في قوله تعالى : ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ على لفظ الاستبشار المفهوم من قوله : ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ، أو على الحال الموصوف في الآية السابقة إجمالاً المتضمن وصف السحاب وكيفية تكونه وسوقه وبسطه في السماء قبل خروج الودق منه وأثنائه ، وهذا ـ كما يظهر ـ أحسن وأَوْلى بالسياق من القول بالإطناب ، والله أعلم .

(٣) تفسير مقاتل ٨٠ ب ، وأخرجه ابن جرير ٢١/ ٥٤ عن قتادة ، وكذا ابن قتيبة في غريب القرآن ٣٤٢ ، ولم ينسبه .

(٤) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية أبي بكر : (إِلَى أَثَرِ) واحدة بغير ألف ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم : ﴿ءَاثَٰرِ﴾ جماعة . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٨ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٨ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٥ .

(٥) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٤٨ بنصه .

(٦) تفسير مقاتل ٨٠ ب .

(إِنَّ ذَٰلِكَ) الذي فعل ما ترون ؛ وهو الله تعالى : ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في الآخرة ، فلا تكذبوا بالبعث[١] ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من البعث والموت .

ثم عاب كافر النعمة والجاهل بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، فقال :

٥١ . ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ . قال ابن عباس : «يريد عذاباً» ، يعني ريحاً هي العذاب كما قال مقاتل : «ريحاً باردة مضرة»[٢] . والريح إذا أتت على لفظ الواحد أريد بها العذاب ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول عند هبوب الرياح : «اللَّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[٣] .

قوله تعالى : (فَرَأَوْهُ) : يعني النبت والزرع الذي كان من أثر الريح رحمة الله ﴿مُصْفَرًّا﴾ . قال ابن عباس ومقاتل : «متغيراً من البرد بعد الخضرة»[٤] .

---

(١) تفسير مقاتل ٨٠ ب .

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره ٨/ ١٧٠ ب ، ولم ينسبه ، ونحوه تفسير مقاتل ٨٠ ب .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٤/ ٣٤١ ، رقم ٢٤٥٦ من طريق حسين بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس ، يرفعه ، ومن الطريق نفسه أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ١٧٠ ، رقم ١١٥٣٣ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٥ : «فيه حسين بن قيس الملقب بحنش ، وهو متروك ، وقد وثقه حصين بن نمير» ، وهذا الحديث له طريق آخر ، قال الشافعي : «أخبرني من لا أتهم ، أنبأنا العلاء بن راشد ، عن عكرمة عن ابن عباس . . .» الحديث ، وقال الأصم : «سمعت الربيع بن سليمان يقول : كان الشافعي إذا قال : أخبرني من لا أتهم ، يريد به : إبراهيم بن أبي يحيى السلمي» . تخريج الزيلعي لأحاديث الكشاف ٣/ ٥٩ .
قال ابن حجر : «إبراهيم بن يحيى هذا ضعيف» . انظر : الشافي الكاف بحاشية الكشاف ٣/ ٤٦٨ ، وقال الألباني عن إسناد الشافعي : «فيه العلاء بن راشد مجهول ، يروي عنه إبراهيم بن أبي يحيى ، وهو الأسلمي : متهم» . انظر : مشكاة المصابيح ١/ ٤٨٣ ، رقم ١٥١٩ .

(٤) تفسير مقاتل ٨٠ ب .

وقوله : ﴿لَظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ . قال : «معناه : لَيَظَلُنَّ» . معنى الكلام : الشرط والجزاء[١] . قال الخليل : «معناه : لَيَظَلُنَّ ، فأوقع الماضي موقع المستقبل[٢] ، كقول الحطيئة :

شَهِدَ الحطيئةُ حينَ يلقى ربَّهُ

أي : يشهد»[٣] .

وقوله : ﴿بَعۡدِهِۦ﴾ ؛ أي من بعد اصفرار النبت يجحدون ما سلف من النعمة ، وهذا بيان عن حال الجاهل عند المحنة من كفره ما سلف من النعمة .

قال أبو إسحاق : «يعني فهم يستبشرون بالغيث ، ويكفرون إذا انقطع عنهم الغيث ، وجف النبت»[٤] .

قال الكلبي : «يقول الله تعالى : لو فعلت ذلك بهم لفعلوا[٥] ، يعني أنهم يفرحون عند الخصب ، فلو أرسلت عذاباً على زرعهم كفروا سالف نعمتي ، وكفروا ما كانوا يستبشرون به ، وليس كذا حال المؤمن ؛ لأنه لا يستشعر الخيبة والكفران عند الشدة والمحنة» .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٩ .

(٢) قال سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠٨ : «وسألته عن قوله ـعز وجلـ : ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ ، فقال : هي في معنى : ليفعلُنَّ ، كأنه قال : ليظلُنَّ ، كما تقول : والله لا فعلت ذلك أبداً ، تريد معنى : لا أفعل» . وقد ذكر الواحدي بنصه في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٩٨ .

(٣) أنشده كاملاً ابن جني ، ونسبه في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٩٨ ، وعجزه :

أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعذرِ

والوليد هو : الوليد بن عقبة بن أبي معيط . انظر : ديوان الحطيئة ١٩٩ .

(٤) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٨٩ .

(٥) تنوير المقباس ٣٤٣ .

٥٢ـ٥٣ . قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ : هذه الآية ، والآية التي بعدها مُفسَّرتان في سورة النمل[١] .

٥٤ . قال مقاتل : «ثم أخبر عن خلق أنفسهم ليتفكر المكذِّب بالبعث في خلق نفسه ، فقال : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾»[٢] . قال قتادة والكلبي : «يعني من نطفة»[٣] .

قال الزَّجَّاج : «تأويله أنه خلقكم من النُّطفِ في حال ضعف»[٤] .

قال أبو علي : «المعنى : خلقكم من ذي ضعف ؛ أي من ماء ذي ضعف ، كما قال : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات : ٢٠]»[٥] . ومعنى ضَعف ذلك الماء أنه قليل .

---

(١) عند قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ . .﴾ [النمل : ٨٠] .

(٢) تفسير مقاتل ٨٠ ب .

(٣) أخرجه ابن جرير ٢١/ ٥٦ عن قتادة ، ومقاتل في تفسيره ٨٠ ب ، وتنوير المقباس ٣٤٣ ، وذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ٣٤٣ ، ولم ينسبه .

(٤) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٩٠ .

(٥) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٥٠ .

وقُـرِئ: ﴿ضَعْفٍ﴾ بفتح الضاد[(١)]، وهما لغتان[(٢)]. قال الفرَّاء: «الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم، والاختيار: الضم لمـا روي أن ابن عمر قرأ على النبي ﷺ بالفتح، فردَّ عليه بالضم»[(٣)].

---

(١) قـرأ عاصم، وحمـزة: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾، و﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾، و﴿ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد فيهن كلهن، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي بضم الضاد فيهن كلهن، وقرأ حفص عن نفسه لا عن عاصم بضم الضاد. انظر: السبعة في القراءات ٥٠٨، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٥٠. قال ابـن الجزري: «وقد صح عن حفص الفتـح والضم جميعاً». انظر: النـشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٥.

(٢) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٥٠.

(٣) لم أجـده عند الفرَّاء، ولكن نسـبه إليه الثعلبـي ٨/ ١٧٠ ب، واختار هذه القـراءة للرواية الزَّجَّاج ٤/ ١٩١.

والحديث أخرجه الإمام أحمد ٧/ ١٥٣، تحقيق: أحمد شاكر، والترمذي ٥/ ١٧٤، كتاب: القراءات: رقـم ٢٩٣٦، وأبو داود ٤/ ٢٨٣، كتاب: الحروف والقـراءات، رقم ٣٩٧٨، والحاكم ٢/ ٢٧٠، كتاب: التفسـير، رقم ٢٩٧٤، وأخرجه الثعلبي ٨/ ١٧٠ ب، كلهم مـن طريق فُضيل بن مرزوق عن عطية بن سـعد العوفي، قال: «قرأت على ابن عمـر: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ فقال: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ قرأتُها على رسـول الله ﷺ، كما قرأتَها عليَّ، فأَخذ عـلَّي كما أخذتُ عليك». وضعَّف هذا الحديث الشـيخ أحمد شـاكر لضعف عطية العوفي، راويه عن ابن عمر، مسـند الإمام أحمـد ٧/ ١٥٣، تحقيق: أحمد شـاكر، والحديـث لا يُعرف بهذا اللفظ إلَّا مـن طريقه كما قال الترمـذي: «لا نعرفه إلَّا من حديث فُضيل بن مرزوق عن عطية العوفي». وقال الحاكم: «تفرد به عطية العوفي، ولم يحتجا به»، وقد احتج مسـلم بالفضيل بن مرزوق. وعطية هذا قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب ٦٨٠، رقم ٤٦٤٩: «صدوق يخطئ كثيراً، وكان شـيعياً مدلسـاً»، وحسَّـن الحديث الألباني في صحيح سـنن الترمذي ٣/ ١٤، رقـم ٢٣٣٩، وأحال على كتابه الروض النضير، وهذا الكتاب غير مطبوع؛ فلعل تحسـين الألباني له لورود هذا الحديث من طريق آخر. قال الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٣٩٧، رقم ١١٠٠: «حدَّثنا هارون بن موسـى الأخفش المقري الدمشـقي، حدثنا سلام بن سـليمان المدائني، حدثنا أبو عمرو بن العلاء، عن نافع عن ابن عمر، قال: «قرأت على رسـول الله ﷺ...» الحديث. وسلام بن سـليمان ضعيف. انظر: تقريـب التهذيب ٤٢٥، رقم ٢٧١٩، لذا قال ابن حجر بعد أن سـاق هذا الطريق من رواية ابن مردويه، قال: «في إسـناده سـلام بن سـليمان». انظر: الكافي الشاف بحاشية الزمخشري ٣/ ٤٧٠. وقد ذكر محققو مسند الإمام أحمد رواية الطبراني، ولم يقووا بها هذا الحديث، بل قالوا: قلنا: سلام متروك. انظر: مسند الإمام أحمد ٩/ ١٨٦، رقم ٥٢٢٧، طبعة مؤسسة الرسالة.

وذكر ابن عدي سـلام بن سـليمان هذا، وقال: «هو عندي منكر الحديث»، ثم سـاق له أحاديث =

وقولـــه : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ يعنـــي : قوَّاكم في حال الشـــبيبة ، وقولـــه : ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ﴾ : يعني ضعف الطفولة . ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ . قال ابن عباس : «يريد : عند الكبر أدركه الضعف والهرم» . والشيبة : مصدر كالشَّيب ، قال الـــمُبرِّد : «يعني من حملة الشيب ، فخرج من حملة الشيب مخرج الواحد ، ويعني بـــه الجمع[1] ، وكذلك القوة والضعف ، وجاز هذا ؛ لأنها مصادر فهي تحيط بالشيء ، تقول : قوي قوة ، وشـــاب شـــيبة ، وضعف ضعفاً ؛ لأنها هيئات تقع على النوع» .

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ؛ أي من ضعف وقوة وشيبة وشباب ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ، بتدبير خلقه ، ﴿ٱلۡقَدِيرُ﴾ على ما يشاء .

٥٥. قوله تعـــالى : ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ . قال ابن عباس والمفسرون : «يريد يوم القيامة ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ في القبور ﴿غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ إلَّا ساعة واحدة»[2] .

= اســـتنكرها عليه ، منها هذا الحديث ، ثم قال : «وهذه الأحاديث عن أبي عمرو عن نافع عن ابن عمر لا يرويها عن أبي عمرو إلَّا ســـلام هذا» . انظر : الكامل في ضعفاء الرجال ٣/ ١١٥٦ . والصواب ـ ـوالله أعلـــم ـ ضعف هذا الحديث ، وأنه لا يرتقي إلى درجة الحســـن ، وأقصى ما يفيده الحديث على فرض صحته أن النبي ﷺ ، أنكر على ابن عمر قراءته : ﴿ضَعۡفٖ﴾ بغير القراءة التي أقرأه إياها ، وذكر الواحدي عن الفـــرَّاء أن الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم ، وعلى ذلـــك لا يؤخذ من هذا الحديث تفضيل قراءة الضم على قراءة الفتح ، والله تعالى أعلم .

(١) قول الـــمُبرِّد : «من حملة الشـــيب» ، الظاهر منه أنه جعل لفظ «الشيبة» أحد أفراد الشيب على اعتبار أن لفظ الشـــيب مصدر فيه عموم وشمول وإحاطة على حد قوله : «فهي تحيط بالشيء» ، وعليه فلفظ «شيبة» مفرد كما هو ظاهر من لفظه أريد به الجمع ، والله أعلم .

(٢) تفســـير مقاتل ٨١ أ ، وتفســـير ابن جرير ٢١/ ٥٧ ، وهو قول الزَّجَّاج ٤/ ١٩١ ، والثعلبي ٨/ ١٧٠ ب .

وقال قتادة : «ما لبثوا في الدنيا غير ساعة»[١] ، والقول هو الأول ؛ لأن الآية الثانية دلَّت عليه[٢] . قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾ . قال الزَّجَّاج : «مثل هذا الكذب كذبهم ؛ لأنهم أقسموا على غير تحقيق»[٣] .

وقال الكلبي : «كذبوا في قولهم : ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ كما كذبوا في الدنيا»[٤] .

وقال مقاتل : «يقول : هكذا كانوا يكذبون بالبعث في الدنيا ، كما كذبوا أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلَّا ساعة»[٥] .

وقال ابن قتيبة : «أي : كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل ، ويقال : أُفِك فلانٌ ؛ إذا عُدِل به عن الصدق وعن الخير»[٦] ، وهذا إخبار عن حال المجرم من إقدامه على الإفك ، عاقبة أمره كإقدامه في ابتدائه .

وذكر مقاتل وغيره في سبب كذبهم : «أنهم استقلوا قدر لبثهم في الدنيا في القبور لـمَّا عاينوا الآخرة»[٧] . والصحيح في معنى الآية أنهم كذبوا من غير عذر ، بل حلفوا كاذبين كذباً صريحاً ؛ لأنهم لو استقصروا مدة لبثهم وخُيل إليهم أنهم لم يلبثوا إلَّا ساعة كانوا معذورين في كذبهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولكن الله تعالى أراد أن يفضحهم فحلفوا على شيء يتبين لأهل الجمع من المؤمنين أنهم كاذبون في ذلك ، ويستدلون بكذبهم هناك على كذبهم في الدنيا بالشرك والكفر ،

---

(١) ذكره عنه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٠٢ ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد .

(٢) وهي قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم :٥٦] .

(٣) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٩٢ .

(٤) تنوير المقباس ٣٤٣ .

(٥) تفسير مقاتل ٨١ أ .

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ٣٤٣ .

(٧) تفسير مقاتل ٨١ أ .

وكان ذلك من قضاء الله وقدره بدليل قوله : ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ ؛ أي يُصرفون ، يعني كما صُرفوا عن الصدق في حلفهم حتى حلفوا كاذبين صُرفوا في الدنيا عن الإيمان ، ولو أراد : كذلك كانوا يكذبون لقال : يَأفكون ، فلما قال : ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ دلَّ على إثبات القَدَر . ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم بقوله :

٥٦. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ؛ أي لبثتم في القبور في خبر الكتاب إلى يوم القيامة[١] ، وهو قوله : ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] ، وقيل : المعنى في ما كتب الله لكم من اللُّبث .

وقال الزَّجَّاج : «في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ»[٢] .

وقال صاحب النظم : «في حكم الله الذي حكم به في قوله : ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾» . وأمَّا المفسرون فإنهم يقولون : «هذا على التقديم ، على تقدير ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾» ، وهو قول الكلبي وقتادة[٣] ، وهذا يحتمل تأويلين ؛ أحدهما : الذين يعلمون كتاب الله فلهم فيه علم ، والثاني : الذين حكم لهم في كتاب الله بالعلم ، وأخبر في الكتاب عن علمهم .

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ٣٤٣ بنصه .

(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٩٢ .

(٣) ذكره السيوطي عن قتادة في الدر المنثور ٦/ ٥٠٢ ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، وعبد بن حميد . وقد وقع خطأ في كتابة قول قتادة في تفسير ابن جرير ٢١/ ٥٧ ؛ حيث كتب : «هذا من مقاديم الكلام ، وتأويلها : وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم : لقد لبثتم في كتاب الله» . والصواب ما ذكره السيوطي في الدر ، ونسبه أيضاً لابن جرير ، وقال بقول قتادة في تفسيره ٨١ أ ، ونسبه الثعلبي ٨/ ١٧١ أ إلى قتادة ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ ؛ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ، وتكذبون به ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه في الدنيا ، فلا ينفعكم العلم به الآن ؛ يدل على هذا المعنى قوله تعالى :

٥٧. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ . قال ابن عباس : «يريد : لا يُقبل من الذين أشركوا عذر ، ولا عتاب ، ولا توبة ذلك اليوم» . وقُرِئ : ﴿لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء[١] ؛ لأن التأنيث ليس بحقيقي ، وقد فصل الفعل بين الفاعل وفعله[٢] . وإذا انضم إلى أن التأنيث ليس بحقيقي ، قوي التذكير[٣] .

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ؛ أي لا يطلب منهم العتبى والرجوع في الآخرة .

٥٨. قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ : بيَّنَّا ووصفنا[٤] للمشركين ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ احتجاجاً عليهم ، وتنبيهاً لهم . ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ يا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ . قال ابن عباس : «يريد كما أرسل الأولون قبلك ، يعني بآية ؛ كالعصا واليد ، وغير ذلك من آيات الأنبياء ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم يا محمد وأصحابك ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أصحاب أباطيل ، وهذا إخبار عن عنادهم وتكذيبهم ، وأنهم لا يعقلون عن

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر : (لَّا تَنفَعُ) بالتاء ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء . انظر : السبعة في القراءات ٥٠٩ ، والحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٥٠ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٦ .

(٢) ورد في النسختين : «وقد فصل الفعل بين الفاعل وفعله» ، وورد في الحجة لأبي علي ٥/ ٤٥٠ : «وقد وقع الفصل بين الفاعل وفعله» ، وهذا هو الصواب ؛ فالمفعول ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فصل بين الفاعل ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ والفعل ﴿يَنفَعُ﴾ .

(٣) الحجة للقرَّاء السبعة ٥/ ٤٥٠ .

(٤) تفسير مقاتل ٨١ أ .

شركهم وكفرهم بالآيات الواضحة إن أُتوا بها» . ثم ذكر سبب ذلك ، فقال :

٥٩. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتوحيد الله ، وكل مَن لم يؤمن بالله ويعلم توحيده فذلك لأجل طبع الله على قلبه .

٦٠. ولـمَّا أخبر عن الطبع على قلوبهم أمر نبيه ﷺ بالصبر إلى وقت النصر فقال : ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بنصر دينك ، وإظهارك على عدوك حقٌّ[1] . ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ . قال أبو إسحاق : «أي : لا يستفزونك عن دينك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ؛ أي هم ضالون شاكون»[2] .

وقال الأزهري : «استخف فلانٌ فلاناً إذا استجهله فحمله على اتباعه في غيه ، ومنه قوله : ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[3] ولا يستخفن رأيك وحلمك» ، وهذا هو المعنى ، وهو الذي يليق بالصبر ؛ أمره الله تعالى بالصبر ، وأن يثبت إلى أن يأتي وقت نصره ، وإهلاك من ناوأه . وقال ابن عباس : «﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ما جئت به» .

وقال مقاتل : «لا يوقنون بنزول العذاب عليهم في الدنيا ؛ وهم الذين عذبهم الله ببدر»[4] .

وقيل : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب .

---

(١) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٩٢ .
(٢) معاني القرآن للزَّجَّاج ٤/ ١٩٢ ، وفيه : «يستفزَّنك» .
(٣) تهذيب اللغة (خف) ٧/ ٩ .
(٤) تفسير مقاتل ٨١ أ .